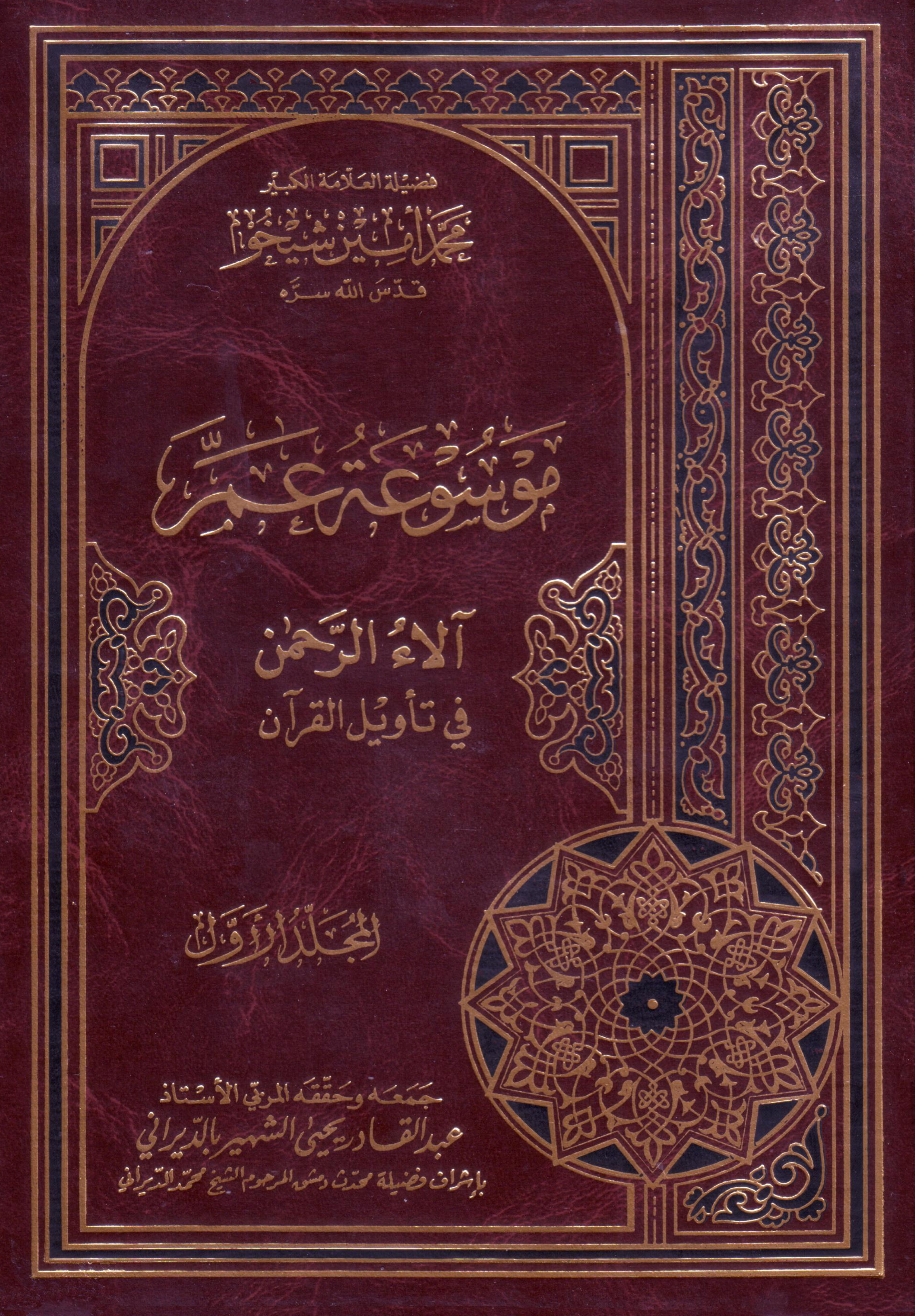
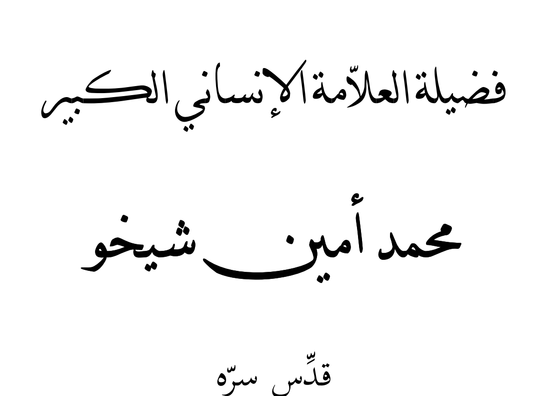

فضيلة العلّامة الكبير
محمد أمين شيخو
قدّس الله سرّه
موسوعة عمر
آلاءُ الرّحمن
في تأويل القرآن
المجلّد الأول
جمعه وحقّقه المربّي الأستاذ
عبد القادر يحيى الشهير بالدّيراني
بإشراف فضيلة محدّث دمشق المرحوم الشيخ محمّد الدّيراني





# مَوسُوعَة عَمَّ

## آلاء الرحمن في تأويل القرآن

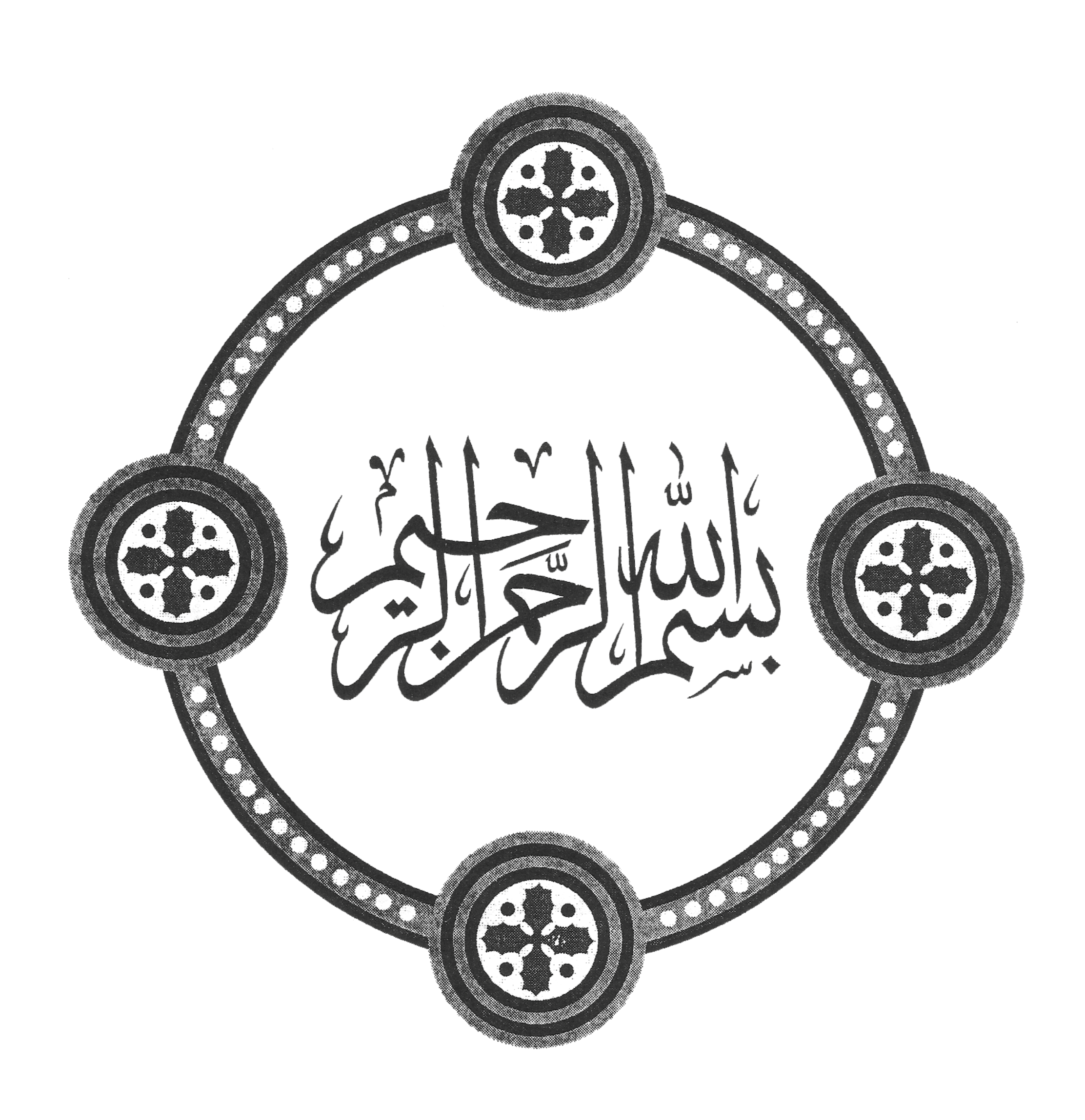
المجلد الأول


جمعه وحققه المربّي الأستاذ

عبد القادر يحيى الشهير بالديراني

بإشراف فضيلة محدث دمشق المرحوم الشيخ محمد الديراني


www.amin-sheikho.com


بسم الله الرحمن الرحيم

# فهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

# الإهداء

دعوة للمفكرين بتأويل عالٍ يبهر العقول والقلوب والعواطف جميعاً ويغرز فيها الإجلال للعظمة الإلهية والإيمان، ذلك لأن روعة جلالها وباهر ضيائها جلالاً وضياءً يتوارى دونهما كل ما سواهما فما كان أعظم تاليها وأعظم به كان عَلَماً: (جبلاً) حجَبَ ما سواه.

غطت دلالته الأجيال ويحق أن تفاخر به الأجيال.

فطوبى لمن استظلَّ بجلال عظمتها واستضاء بباهر لألائها.

فيها براءة الإسلام العظيم من دسوس المغرضين.

فيها براءة قلوب السالكين من أهواء الشياطين.

بها سعادة الحياة العظمى أبد الآبدين.

تنزيل من حضرة العلي الرحيم ورسوله الكريم

# مُقَدِّمَة

من شواطئ الشوق ووديان العشق الإلَهي، من بحار الحمد، من أقوى قوة حبيَّةٍ كونيةٍ عظمى، من لسان الحضرة الإلَهية على قلب سيد المرسلين، من رياض الجنان، من بناء كدِّ عرق جبين الأنبياء والمرسلين المتحفين حيث تفيض بركاتُ نفوسهم شلالاتِ ماءٍ غدقاً لا يقتر نبعها، بُشربها تُفْتَنُ قلوبُ سالكي طريق الحق عن كل دنيء لتغوص بنفوسهم في بحار المعرفة الإلَهية العظمى فَتُفِيضُ بقلوبهم سبعاً من المثاني يتلوها سيدُ المرسلين من غور الأزل السحيق إلى يومنا هذا... ذلك دين القيّمة.

قلبه بيت الرب منارة قلوب الصادقين الصديقين العالمين، حيث تترادفُ المعاني ليكون بحراً مداداً لكلمات ربِّه ومن ورائه سبعةُ أبحرٍ، نواتها **(لا إلَه إلا الله)** تترددُ بمعانٍ لا انتهاء لها، هي نواة الوجود، وبشهودها نعود غانمين مترفين بمعيَّتك يا رسول الله يا سيد المرسلين.

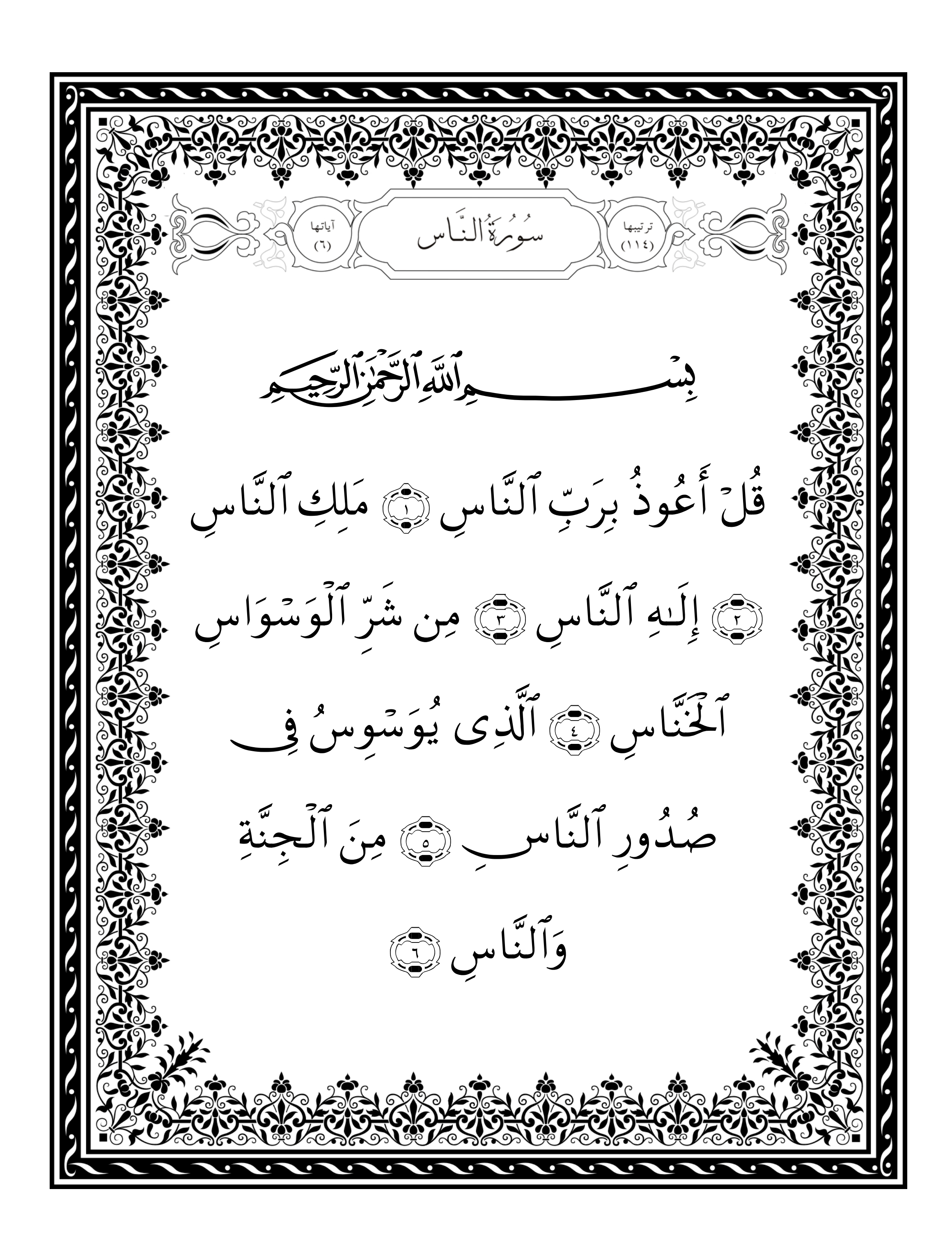
تعالوا... تعالوا لنجتمع حقاً كما اجتمعوا بسيد المرسلين في عظائم أنوار إقباله العالي على ربه حتى كان قاب قوسين أو أدنى حين رآه بالأفق الأعلى.

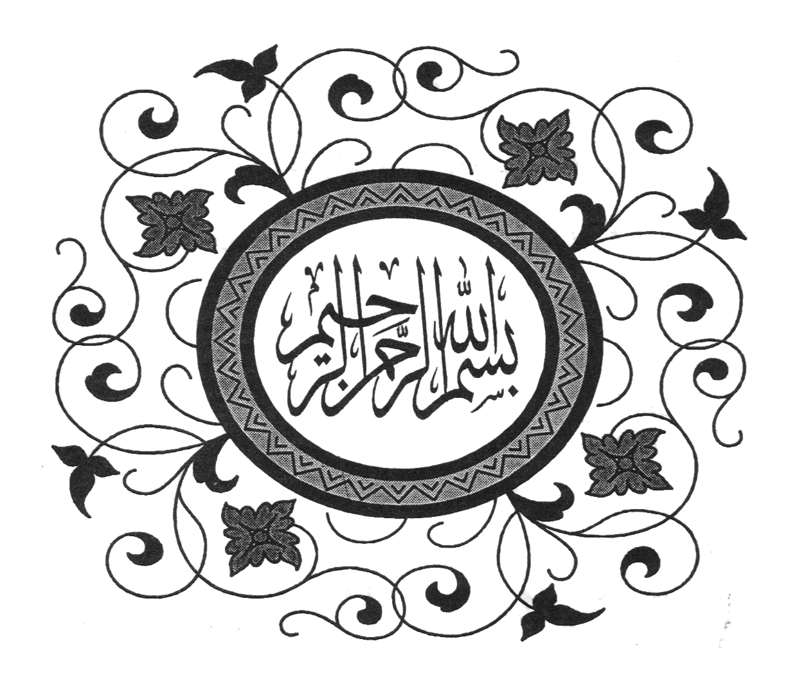
فلن يدخلن عليه إلا مفكراً، هجر الهوى المهلك واتبع ملة إبراهيم حنيفاً، فهيا بنا لنصبح مع سادة العالمين المبَشَّرين بالجنَّات والفوز العظيم، لنرفد ركب الصحابة والتابعين فنكون كما كانوا مناراً وأقماراً للشموس المحمدية تعكس أنوارها بخيلاء حينما كادت الدنيا تُظلم برمّتها لنكون كالنجوم أبد الآباد ودهر الدهور ومن أجل هذا فلتمتد الحياة وليتصل الوجود، وإلا فلا.. ومن أجل هذا فليعمل العاملون.

**تقديم**

**الأستاذ عبد القادر الديراني**


سورة الناس


ترتيبها
(١١٤)
سُورَةُ النَّاسِ
آياتها
(٦)
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ
﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ
ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى
صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ
وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾




تسأل وأسأل ويسأل الناس في كل زمان، وقديماً تساءلت قريش، ومن عاصرها من القبائل والأقوام، من أين جاء هذا الرجل العظيم والسيّد الكريم، وأعني به سيدنا محمد ﷺ، بما جاء به من بليغ القول ورفيع الدلالة، وسامي الأخلاق وعالي الشمائل والصفات، يفوق بشجاعته الصناديد والأبطال، ويبذ برأيه الثاقب وحسن تدبُّره الأمور أعظم الساسة وأكبر الحكماء، ويبدو في علمه كأنه البحر الزاخر لا يقف عند حد وليس له انتهاء، ويسمو بحلمه ورفقه ولطيف معاملته فوق كل ذي مكانة ومقام، فليس يستطيع أن يدانيه بشرٌ ولا أن يدرك نهاية لسموِّه وكماله إنسان.

رجل نشأ في أرض مقفرة لا أثر فيها لمعهد من معاهد العلم، وفي جو لا مدارس فيه ولا علماء، فيفوق في علمه كل عالم، ويسمو بخُلُقه العالي على كل ذي خُلُق فاضل، ويقارع بالحجة الدامغة كل معارض ومعاند، فتتحطَّم أمام حججه كل مناقشة لها صلة بباطل، وتزهق المعارضة، وينبلج الحق، ويلمع ويبدو كالصبح السافر والكوكب الساطع في الظلام المدلهم الحالك. فمن الذي بثَّ في نفسه ما بث من سمو، ومن أين له ذلك المقام؟.

رجل قام يدعو إلى الحق، فتقف في وجهه المعارضات، وتُحاك المؤامرات وتحتك الآراء، ويقوم جناة للشر بالشر، وتتَّحد الأقوام وتتحزَّب الأحزاب، وتتضافر جهود أهل الضلال، ويحملون لواء الباطل، ولهم جيوش ولهم رماح وسيوف ونبال، ويتعاون الجمع على رد الحق وإشعال نار

الحرب، ثم تضطرم ولها أوار، ويقف هذا الرجل العظيم في مبنى القيادة يدير المعركة بكل حزم وحكمة وأناة، ويحمى الوطيس فينزل بنفسه إلى الميدان، يُقارع الأبطال ويزلزل الأقدام، ويمسك الحاسدون بعضهم بأيدي بعض يبغون قتله وأذاه، وإن هي إلاَّ جولات حتى يندحر القوم ويهزم الجمع ويولُّون الدُبُر، ويخرج هذا السيد العظيم من المعركة ظافراً منتصراً، يقطر وجهه بشراً ونوراً ويلمع سروراً وحبوراً، وكيف لا ينير وجهه ويلمع، وكيف لا يشرق ويسطع، وقد ركَّز ركائز الحق في أم القرى، وأقام لها مناراً يهدي التائه ويرشد الضال ويقيل العثار على كر العصور والأزمان.

فمن أين له هذه الشجاعة الرائعة، ومن أين له هذه الحكمة البالغة، وكيف حصل على هذا القلب الثابت والجأش الرابط والكمال الذي لا يدانيه فيه مدان، ولا يدرك شأوه إنسان؟.

تعجب وأعجب ويعجب الساسة المفكِّرون ويتطَّلع العظماء من الرجال، يرمقون ذلك المقام الرفيع الذي حلَّ به هذا الإنسان العظيم، ويتساءل أبطال الأبطال وتهفو القلوب إلى الجواب، ثم تنحل المشكلة، ويبطل العجب ويتبيَّن السبب، بما نزَّله الله تعالى على عبده من آيات بيِّنات، تضمَّنها القرآن الكريم ونطق بها الذكر الحكيم، فجاءت مبيِّنة سر هذا السمو الإنساني البليغ، لدى هذا الرجل العظيم في قوله تعالى:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ، مَلِكِ النَّاسِ ، إِلَهِ النَّاسِ ، مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ، الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ، مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾.

وهكذا فسورة الناس تبيِّن لنا أن رسول الله ﷺ، بلجوئه وبعياذه العالي بربِّ الناس، شرُف وسما، وصار أكرم مخلوق وأرفع إنسان.

وتفيد كلمة (**قل**) تعريفاً وبياناً فهي تقول:

اذكر لعبادي أيها الرسول معرِّفاً ومبيِّناً ذلك المنبع العالي الذي منه نهلت، والمورد الذي عنه صدرت، والمعهد الذي منه تعلَّمت، والجهة التي إليها أويت، فسموت وشرفت وتعرَّفت، والملجأ والموئل الذي إليه لجأت وبه عذت، فأصبحت بشراً لا كغيرك من البشر، إنساناً سامياً فوق كل مخلوق وإنسان، والطريق سالكة مُمهَّدة لكل راغب، والسبيل ميسَّرة لكلِّ سارٍ وطالب، وفضل الله تعالى واسع عميم، يؤتي كلاًّ على حسب سعيه، والله ذو الفضل العظيم.

**فيا أيها الناس:**

إن شئتم علما غزيراً وحلماً كثيراً، وخُلُقاً سامياً ورأياً ثاقباً بصيراً، وعقلاً راجحاً كبيراً، وإن أردتم شجاعة وقلباً ثابتاً لا تزلزله الخطوب، وجأشاً رابطاً لا تفل من عزماته الحوادث والمؤامرات والحروب، وإن رمتم حياة هنيئة طيبة وراحة نفسية دائمة وشرباً من كأس الحب الإلَهي وتمتُّعاً بسعادة أبدية خالدة، فعوذوا بربِّ الناس الذي به عذت، والتجؤوا إلى من إليه التجأت: ذلك بعض ما نفهمه مجملاً من كلمة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، ونفصِّل لك بعض كلماتها تفصيلاً فنقول:

**العوذ والعياذ:** مصدران لفعل عاذ بمعنى: ألتجئ وأحتمي معتزاً مستجيراً، وعلى وجه المثال نقول:

لو أن طفلاً كان يسير في الطريق، فلحق به عدو من إنسان أو حيوان يريد إيقاع السوء به وأذاه، وفيما هو على أشد ما يكون من الخوف والذعر، ألفى أباه قادماً نحوه، أفتراه والحالة هذه يلتجئ ويحتمي، وإن شئت فقل أيعوذ بغير أبيه؟. إنه يعوذ به لأنه يعلم حبه وإخلاصه وقوَّته على دفع عدوه عنه، وكذلك المؤمن ما عليه إلا أن يعوذ بربه ويقبل عليه بنفسه، وهنالك يحفظ ويوقى ويندفع عنه الشر والأذى، وإلى جانب ذلك يسمو ويرقى، ويكون له في رسول الله أسوةٌ حسنة.

وهكذا فالله سبحانه وضع أمامنا بهذه السورة الكريمة نموذجاً حيّاً، ومثلاً أعلى، مبيِّناً لنا فيه آثار الإيمان به تعالى، ونتائج الإقبال عليه والعياذ به، فعرَّفنا تعالى أن رسوله ﷺ، إنما هو عائذ بربه دوماً، وبذلك سما هذا السمو، وشرف هذا الشرف العظيم، فمن رام رفعةً وكرماً خلُقياً، ومن شاء حفظاً من الشر والأذى ومن أراد كمالاً وسمواً نفسياً، فلْيعذ برب الناس كما عاذ رسول الله ﷺ، وهنالك وبنسبة إقباله يكتسب رفعة وبقدر التجائه وعياذه ينال تأييداً وحفظاً وفضل الله تعالى يسع الخلق كافةً، والله واسع عليم.

وأراد الله تعالى أن يعرِّفنا بشأن هذه الجهة التي يجب أن نعوذ بها، وأن يبيِّن لنا عظمتها، لأن الأنفس لا تستسلم إلا لعظيم، ولا تطمئن إلا لقوي قدير، فذكر لنا أن العوذ إنما يجب أن يكون برب الناس.

**والرب**: هو المربي، وليتبيَّن لك معنى التربية نضرب المثل الآتي فنقول:

هبْ أن امرأً يسهر على تربية نبتة صغيرة فما عساه أن يفعل بهذا الخصوص؟.

إنه يمدها بالماء حيناً، وبالسماد والغذاء حيناً آخر، وإلى جانب ذلك يضعها في الوسط المناسب، فينقلها من شمس إلى فيء وظل، ومن فيء وظل إلى نور وشمس، وتراه يعزق (ينبش) التربة ليتخلل الهواء ذراتها، ويصل إلى جذور النبتة، وفي بعض الأحيان يغسل أوراقها وأغصانها ليزيل عنها مابها، ويمد لها الخيوط (شبك) تنساب عليها ساقها.

وهكذا فكلمة (**التربية**) تتضمَّن العناية التامة والإشراف الدائم، وتأمين الوسط المناسب والإمداد بما هو ضروري للحياة، وفق شرائط ونسب معينة. ذلك بعض ما نفهمه من كلمة التربية في مظهرها المادي، وللتربية نواحٍ أخرى ومعان، ونقتصر الآن في البحث على ما ذكرناه ونعود إلى ما نحن بصدده من تأويل فنقول:

يتبيَّن لنا من خلال هذا المثال الذي أوردناه أن كلمة ﴿رَبِّ النَّاسِ﴾ تفيد معنى الممد الذي يمدُّ الناس بما يلزمهم للحياة من ماء، وغذاء، وملبس، وكساء، وحرارة وضياء، وأمطار وهواء، وليل ونهار وفصول ذات تبدُّلات وتغيرات، وروح هي أصل الحياة وسر الحياة.

وتضيق الكتب ويعجز القلم، ولا يستطيع أن يعبِّر لسان عما أوجده الله تعالى للإنسان في هذا الكون، من أشياء كلها ضرورية، وكلها تعمل متضافرة متضامنة في سبيل توفير ما يلزم لحياته.

أوليست هذه النجوم العظيمة والأجرام السماوية في أبعادها السحيقة عاملاً من عوامل الحياة على سطح هذه الكرة الأرضية؟. أوليست الشمس والقمر سببين في انتظام الحياة؟. أوليس دوران الكرة الأرضية بهذا الترتيب الذي نعهده عاملاً في توليد الليل والنهار، ضمن مدد وأوقات معيَّنة بدونها لا تمكن الحياة؟. أليست تلك الطبقة الغازية التي تحيط بالكرة الأرضية ترافقها في سبحها ولا تفارقها سبباً ضرورياً للحياة؟. وهل يمكن للإنسان أن يعيش من دون هواء؟...

وهكذا ففكِّر ما شئت فيما سوى الأرض وما حولها، تجده كله عاملاً من العوامل الأساسية التي تتوقف عليها حياتك ووجودك في كل لحظة وحين.

ثم انتقل معنا إن شئت إلى الكرة الأرضية ذاتها، تواجهك البحار والمحيطات ملأى بمائها فترى من عظمتها العجب العجاب، وتعرض لك الراسيات من الجبال تضم في كتلتها الصخور المختلفة وتشتمل على أنواع منوَّعة من الأتربة والمعادن والأملاح، وتتراءى أمام عينيك العيون والأنهار تملأ بغزارتها ودوام جريانها نفسك تعظيماً لمن سلكها وأجراها على هذا النظام، وتبدو لك النباتات والأشجار والفواكه والأثمار والأزهار، وما هي عليه من حسن الترتيب وعظيم الفائدة وبديع الرائحة والروعة في الجمال، وترى صنوف الحيوانات صغيرها وكبيرها، قد انطلقت كل فصيلة منها وكل فرد من أفرادها فيما خُصِّص به من وظائف وأعمال، حتى الجراثيم النباتية تجدها ناشطة في عملها تحلِّل وتركِّب وتجتذب مادة وتطرح أخرى ليل نهار.

وهكذا كل ما في الكون يعمل، وكل ما في الكون دائب لا يفتر، وجميع ذلك له وظائفه وخصائصه، وعائدات الأعمال كلها ونتائج مساعي هذه المخلوقات جميعها، إنما هي لك ولدوام وجودك وحياتك وإمدادك بما يلزمك، وذلك كله إنما يؤمِّنه لك ربك، يمدُّك به لتقوم به حياتك أيها الإنسان.

أليس والحالة هذه من الحقيق بك أن تعوذ به سبحانه وتلتجئ إليه دون سواه؟. هذا مجال من مجالات التربية في هذه الحياة، وللتربية مجالات أخرى منها مجال تربيتك لما كنت في بطن أمك مخلوقاً صغيراً، لا تكاد تكون شيئاً مذكوراً، فمن الذي كان يمدُّك بالدم صافياً نقياً يحمل لك من جسم أمك أنواع المواد الضرورية للحياة؟. من الذي جعل لك ذلك الوسط المناسب في ذلك القرار المكين، لا يمسُّكَ فيه حر ولا برد، وتسير بك أمك محمولاً في ذلك الفلك المشحون لا يصيبك أذى ولا يزعجك شيء؟. وعندما خرجت لهذا الوجود وانتقلت إلى عالم الظهور وانقطع عنك ما كان يأتيك في بطن أمك من غذاء، أما وجدت غذاءك مُهيَّئاً في ثديي أمك، وقد تمَّ نضجه وسبق إعداده خروجك ومجيئك؟. أما وجدته معيَّراً منظَّماً وشراباً سائغاً لا يزعجك برده ولا يحرق فمك حرُّه، وإذا هو يتجدَّد معقَّماً في فترات كلما احتجت وطلبت. فمن الذي هيَّأه وعيَّره وعقَّمه ونظَّمه لك ذلك التنظيم، ثم جعل يزيد لك في نسبة سكَّره ودسمه وأملاحه زيادة متوافقة مع تقدُّم سنك واحتياجات جسمك، فإذا ما قويت معدتك وأمعاؤك وأضحت قادرة على هضم الأطعمة بدأ التسنُّن وبدت الأسنان تظهر متلاحقة بما

يقتضيه الحال، ولكلٍّ منها أبعاده وصفاته وخصائصه، حتى إذا ما بلغت السابعة من العمر وبدأ يشتد عودك، أبدلك من أسنانك اللبنية الضعيفة بأسنان صلبة قوية، تتناسب قوتها مع حاجتك للغذاء، فتقطع وتمزِّق وتطحن، فمن الذي رتب ونظم هذا التنظيم، وأشرف عليك هذا الإشراف، وأمدك بما أمدك به بنسبة ما يلزمك وبمقدار ما تحتاج إليه؟.

والآن وهذا مجال آخر من مجالات التربية. ترى من الذي يمد كل عضو من أعضائك، لا بل كل ذرَّة من ذراتك، وكل حجيرة من حجيراتك، بما يلزم وما تتطلبه الحياة؟. من الساهر دوماً على ترتيب أجهزتك وسير الدم، يحمل الغذاء إلى كل ناحية من نواحي جسمك بلا انقطاع؟.

أتراك بعد هذا عرفت طرفاً مما في التربية من معان، وأدركت شيئاً من عظمة هذا المربي، وشاهدت بعض نواحي التربية التي تشير إليها كلمة ﴿رَبِّ النَّاسِ﴾، الذي به يجب أن تعوذ وتحتمي، والذي به عاذ رسول الله ﷺ في كل لحظة من لحظاته، فسما هذا السمو واكتسب منه تعالى ذلك الكمال، فأصبح أشرف الخلق وسيد العالمين.

هذا وإنه لابد لنا من أن نفصِّل لك في هذا المجال الأخير من مجالات التربية بعض التفصيل فنقول:

العين وما فيها من الأنسجة، والطبقات والأعصاب والعضلات والأجسام الزجاجية الكاسرة للأشعة والغدد والعروق والمخاريط والأقنية، وكل ما تستعين به على الرؤية بوضوح وصفاء.

والأذن وما فيها من أغشية وحزم عصبية تتجاوز الآلاف وما يحيط بهذه الأعصاب من أغماد، وما لهذه الأذن من عظيمات دقيقة التركيب مختلفة الأبعاد، وما بالأذن من سائل داخلي يساعد على نقل الصوت إلى المراكز الرئيسية في الدماغ.

والقلب وما فيه من أجواف، وما له من أربطة ودسامات، وما يتعلق به من شرايين وأوردة وأوتار، وما يحيط به من شغاف وغشاء بينهما سائل لزج يساعده على الحركة والانزلاق.

والأمعاء والمعدة وما فيهما من طبقات، وما يرتبط بهما من مئات الغدد وأوعية الامتصاص، وكذلك الكبد والطحال والكليتان وما سواهما من أحشاء. والمخ والمخيخ وجميع ما فيهما من مراكز للتوازن والمشي والنطق والحركة، وإن شئت فسر معي ننتقل من عضو إلى عضو، ومن جهاز إلى جهاز، حتى نصل إلى أصغر نقطة، وإن شئت فقل حتى نصل إلى الحجيرة والنواة،

تجد جميع ذلك مشمولاً بتلك التربية الإلَهية، فما من عضو من الأعضاء ولا جهاز من الأجهزة ولا ذرَّة من الذرات مهما صغرت ودقت، مما لا يمكن أن يتصوَّره خيالك أو يدركه فكرك، إلا ويقوم وجوده ويستمر بقاؤه ويبقى كيانه وتكوينه بتلك التربية الإلَهية والإمداد المتواصل.

وإمداده تعالى لك كلّي لا يغادر منك صغيراً أو كبيراً، وإمداده تعالى لك دائمي لا ينقطع ولا يتوقف عنك لحظة من اللحظات. وقد فصَّلنا لك في التعريف بكلمة ﴿رَبِّ النَّاسِ﴾ بما يسمح به الوقت من تفصيل، فلننتقل إلى التعريف بكلمة ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ وقد مهدت لها سابقتها، وأضحى من اليسير علينا إدراك طرف من معانيها، فنقول:

**الملك**: هو الذي إليه يعود الأمر في التصرُّف، يصرِّف الأمور بما يناسب الوضع ووفق ما تقتضيه الحال. وبشيء من التفصيل نقول:

تفيد كلمة (**الملك**) بمعناها المشهور لدى الناس، وبالنسبة لإشراف إنسان على آخرين، الحاكم الذي يصرِّف أمور الرعية، وينظِّم شؤون الشعب ويدبِّر حاجاتهم، على حسب ما تتطلبه الظروف والأحوال وبما يضمن المصلحة العامة للمجموع، كما يضمنها لكل فرد من الأفراد، فإذا هم عامة خاضعون لتدبيره، سائرون بتوجيهه مفتقرون إلى إشرافه، وإن كانوا ولهم الاستقلال في مجالات أعمالهم وآفاق أشغالهم المرسومة خطوطها العريضة من قِبَلِهِ والمحاطة جميعها بإطار واسع من إشرافه وحسن تنظيمه.

وإذا كانت كلمة (**الملك**) بالنسبة لإشراف إنسان على إنسان تتناول ذلك المعنى الذي ذكرناه، مشيرة إلى افتقار المرؤوسين إلى حسن إشراف رئيسهم وتدبيره، فإن كلمة ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ تتضمن مجالات أوسع، وتنطوي على معان أدق، وتشتمل على نواحي عديدة يضيق عنها الحصر ونفصِّل لك المعنى بعض التفصيل فنقول:

هؤلاء الناس في طعامهم وشرابهم وسائر احتياجاتهم، لا بل في كل شأن من شؤون حياتهم، مدينون إلى الله تعالى ومفتقرون إليه، أمورهم كلها بيده، وليس يملك لهم رزقاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً سواه تعالى.

أرأيت إلى هذه الرياح تربض ساكنة هادئة، ويطول ربوضها ويستمر هدوؤها اليوم واليومين والأسبوع والأسابيع، فلا ترى لها حركة وما تستطيع قياماً، وفي هدأة من ليل أو نهار، تهب من مرابضها عاصفة وتثور هائجة تسوق السحب وتلبِّد الغيوم وتصك سحاباً بسحاب، وإن هي إلا ثواني ولحظات، حتى يهطل المطر غزيراً سحاً ومدراراً، ويلمع البرق لمعاً متتالياً، ويدوي الرعد وله أزيز وهدير، ويدوم ذلك ما شاء الله له أن يدوم، فتحيا الأرض من بعد موات، وتهتز رابية، وفيما السماء مكتئبة، والشمس محتجبة، والأمطار والثلوج في تهطال، تعود الرياح فتمزِّق السحاب، وتجعله شتيتاً مقطَّع الأوصال، مفرَّق الأجزاء، وتذهب به إلى جهة أخرى، أو تعود به من حيث جاء، وتبدو لك السماء بزرقتها الجميلة الصافية، لا يُعكِّر صفاءها شيء من الأشياء، فمن الذي دبَّر لك هذا التدبير، وأنزل لك الرزق من السماء؟. هل لأحد من الناس يد في ذلك كله؟. وهل يملك هؤلاء الناس جميعاً رزقاً لأنفسهم؟. من الذي أغاثهم وسقاهم وتفضَّل عليهم بهذا الفضل؟. من الذي أنبت لهم الكلأ والعشب يستر بلونه الأخضر الزاهي الجميل فسيح البراري وسفوح الجبال يسيمون فيه أنعامهم؟. من الذي أخرج لهم الزرع يسدُّون فيه حاجاتهم ويؤمِّنون منه طعامهم؟. من الذي ركم لهم الثلوج في أصقاع الأرض وأطرافها وجمَّده وجلَّده وسمَّكه وأركمه فجعل منه جبالاً جليدية كبرى تتحرك وتسير سيراً ظاهراً كالأعلام وسيراً عميقاً عظيماً ورفيقاً فأخرج به الينابيع والأنهار وأجرى صحارٍ كبرى من الجموديات تجري وتسير ولا تنفك عن الحركة والمسير، هذه الجموديات القطبية الكبرى كيف غذَّاها ورفع سمكها فأجراها، سلكها عيوناً رقراقة دفَّاقة وفي بطن الأرض أجراها وكل جزيرة وقرية ومدينة أسقاها وأرواها وببطون الجبال خزَّنها وأوعاها ثم بنظام أسراها ينابيع وأنهاراً، وإن شاء أذهبها وجعل مياهها غوراً لكنه أرفقها بما شاء من مياه الأمطار وثلوجها، سلك تلك المياه ينابيع في الأرض[1]، تمدُّهم بخيراتها طوال العام؟. هل لأحد في ذلك أدنى تصرُّف أو تدبير؟. هل لأحد منهم ملك في زيادة أو نقص أو تغيير؟. أليس ذلك المتصرِّف والمدبِّر هو الله وحده لا شريك له؟. أليس هو المتولي شؤون الخلق وإمدادهم بالرزق؟. أليس الناس جميعاً مفتقرين لإحسانه، فإن منع فما لهم من مرجع سواه ولا ملجأ إلا إليه؟. أليس هو الملك ملك

[1] انظر كتاب مصادر مياه الينابيع في العالم (المعجزة العلمية الجبارة) للعلامة محمد أمين شيخو.

الناس بفضله وإحسانه؟. فما كان من نعمة فمنه تعالى وحده، بيده الأمر وله الملك وله الحمد.

وتركب في البحر، وتجري بك الفلك بريحٍ طيبة وتفرح بها، ويطيب لك السفر وتواتيك الأحوال، وفيما أنت فيه من متعة وسرور، تهبُّ رياح تساندها رياح وتلحق بها رياح، ويضطرب البحر ويهيج ويموج بعضه في بعض، ويعلو الموج فإذا بجبال من الماء قد انصبَّت في هذا الخضم الواسع، كأنها تريد أن تناطح السحاب، وإذا السفينة في الذروة والقمة، كأن لم يبقَ بينها وبين السماء إلا أميال، ويظلم الجو ويكفهر، ويدوي الرعد وكأنه أسودٌ تجمَّعت حول سفينتك المحمولة على كف هذا النوء الشديد، ويلمع البرق بين حينٍ وحين، وإن هي إلا لفتة حتى تهوي هذه السفينة من ذراها، إلى وادي سحيق تهوي إلى تجاويف بعيدة الغور بين موجات البحر، فكأنما خرَّت من السماء، ويحسب الناس جميعاً أنه الموت وأنه الهلاك قد أحاط. ترى من الذي بيده المُلْك الآن؟. ومن المِلِك الذي بيده هذه الأنواء المكفهرة وتلك الرياح الهائجات؟. من الذي بيده هذا البحر الهائج المائج؟. من الذي بيده هذه السفينة ومن فيها؟. هل لأحد في ذلك تصرُّف وهل من حول أو قوة، أو هل من ملجأ إلا إلى الله؟. ونستغيث به ونستجير، ونحن في هذه السفينة كأننا عصافير في قفص تلاعبت به الرياح، ويسمع ربك النداء الصادق فإذا الرياح تخفِّف من غلوائها وإذا الأمواج يهدأ غضبها، وإذا السفينة تعود على صفحة الماء، فلا ترى في ذلك الخضم العظيم عوجاً ولا أمتاً، ويعود للجو سكونه، وللسفينة سيرها الهادئ وللأنفس طمأنينتها، ويعلم الناس أن الله تعالى ملك الناس وما من تصرُّف لأحد سواه.

هذان مثالان، هطول الأمطار من بعد إمساك وجفاف، وهياج البحر من بعد هدوء وصفاء، ثم عودة إلى هدوء من بعد اضطراب. ما أوردناهما إلا لنبين لك أن المتصرِّف بشؤونك هو الله وحده لا شريك له، وأنه هو الملك الحق المبين.

وهنالك نواحٍ أخرى ولُمع يضيق عنها الحصر، ولا تتسع لها كتب ومجلدات، ومع ذلك وإن كنا لا نستطيع وليس يستطيع أحد أن يبلغ في التفصيل نهاية، لا بد لنا من أن نلفت نظرك إلى مجالات أخرى، تُعرِّفك بكلمة ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ فنقول:

كلنا يعلم أن الأرض التي نحن على سطحها إن هي إلا كرة عظيمة سابحة في فضاء لا يتناهى، ونحن محمولون عليها نغدو ونروح، ونسعى في أعمالنا، ونحرث ونزرع حقولنا، ونحفر فيها آبارنا ونقود حيواناتنا وسياراتنا، ونركب سفننا وطائراتنا، ونأكل ونشرب، ونعلم ونتعلَّم، ونحن في هذه السفينة الفضائية الكبرى في سفر بعيد المدى، فمن الذي بيده مُلْك هذه السفينة التي تحمل الناس جميعاً؟. أليس الذي بيده ملكها وقيادها هو ملك الناس، الذي به يجب أن يعوذ ويحتمي الناس، كما عاذ به رسول الله ﷺ.

وكلنا يعلم أن هذه الأرض مع قمرها، وما هي مرتبطة به من شمس وكواكب، وإن شئت فقل هذه المجموعة الشمسية إن هي إلا نقطة من النقاط في ذلك البحر الخضم من نجوم سابحة في فضاء لا يعلم بعظمته إلا الله، فهي تدور فيه وتسبح وكل ما فيه يدور ويسبح وكل ما فيه يسير في أفلاكه بنظام، فمن الذي بيده مُلْك ما في السماء من ملايين الأجرام، الذي لا يكاد يحصرها عدٌ أو يحيط بعظمتها إنسان؟. أليس الذي بيده ملك السموات وما فيها من نجوم سابحات، تجري بينهن الأرض والناس محمولون عليها هو ملك الناس؟.

لا أريد أن أباعد بك كثيراً في الكلام عن الأرض والسماء، والشمس والقمر والرياح والأمطار، والهواء والماء والنباتات والمزروعات، ولا أُحدِّثك عن كل ما تتوقف عليه حياتك، مما يعرِّفك إن فكَّرت به حقاً بافتقارك الدائم إلى ملك الناس، الذي بيده أمرك وأمر جميع الناس، بل أريد الآن أن أنتقل بك إلى ذاتك وإلى وجودك، إلى جسمك وروحك، إلى كل عضو من أعضائك وكل جهاز من أجهزتك، لأعرِّفك أنك مُلْك لله، وأنك بيده تعالى وحده يتصرَّف بك ومالَكَ من معاذ سواه.

فاترك السماء والأرض، واترك القمر والشمس، واترك الكون كله، وهلم ننظر في الكون القريب، وأريد به جسمك الذي حوى ومثَّل نموذجاً من هذه الأكوان. هلمَّ ننظر إلى القلب يخفق بين انقباض وانبساط، ينساق منه الدم في الشرايين والأوردة، إلى كل عضو من الأعضاء. فمن الذي بيده القلب يحرِّكه هذه الحركات؟.

ومن الذي يمده بالقوة، يقوم باليوم الواحد يدفع ما يربو على خمسة آلاف لتر من الدم إلى كافة الأنحاء؟.

أليس الذي بيده هذا القلب الذي لو أسكته لحظة لمات هذا الإنسان، هو الذي بيده قلوب الناس جميعهم، وهو ملك الناس؟.

ولننظر إلى الدماغ يرسل بتياراته الكهربائية، يحرِّك بها هذا القلب وغيره من الأجهزة الرئيسية، التي تتوقف عليها الحياة. ترى من أين له هذه القوة ومن الذي يبعث فيه هذه التيارات؟. من الذي بيده هاتان الرئتان تُصفِّيان الدم مما به من غازات سامَّة، وتحملان إليه مولِّد الحموضة الذي لولاه لما عاش امرؤ ولما أمكنته الحياة؟. من الذي بيده هذه المعدة، ينغلق بوَّابها على ما بها من شراب وطعام، وتتحرك عضلاتها منقبضة منبسطة بحركات منتظمة، وبصورة مستمرة لا تفتر ولا تعيا، حتى إذا ما نضج الطعام وأضحى صالحاً، مرَّره البواب فانساق إلى الأمعاء حيث الامتصاص؟.من الذي بيده الكبد يخزِّن ما زاد في الدم من السكر ويكثِّفه تكثيفاً كيماوياً، ثم يرسل منه في كل حين إلى الجسم حاجته بصورة منتظمة لا زيادة فيها ولا نقصان، ويولِّد الصفراء الهاضمة للشحوم والمواد الدهنية، ثم يجعلها تنصب على الأمعاء بنظام؟. من الذي جعل من الكبد معملاً كيماوياً، يحلِّل الكريات الدموية الميتة، فيرسل رممها وبقايا جثثها إلى جهاز البول يطرحها، ثم يصنع على أنقاضها مخلوقات فتية، وكريات جديدة تنشط في أعمالها، فإذا هو في كل لحظة وبأقل من طرفة عين يحلِّل الملايين منها، وإذا هو في كل لحظة يولِّد ويصدِّر آلاف الآلاف؟.

من الذي جعل للكبد كما يقولون أكثر من خمسين وظيفة، وإن هو إلا قطعة من لحم ودم خُلقت من تلك النطفة التي تكوّن منها هذا الإنسان، فإذا هي تحلِّل وتركِّب وتخزِّن وتفرز وتولِّد وتصدِّر وتقوم بعملياتها الكيمائية ضمن النسب ووفق الأعداد من الذرات اللازمة، وتقدِّم ذلك كله للجسم وتسهر على بقاء حيويته ونشاطه وانتظام أعماله في يقظة ونوم، في راحة وعمل، في كل لحظة وحين، وما يدري هذا الإنسان من أمرها شيئاً، وهو لا يبذل في الإشراف عليها جهداً.

أليس المشرف على هذا الجهاز العظيم الذي لو توقف قليلاً عن عمله لمات هذا الإنسان هو ملك الناس؟. وآخِرُ ما أحب أن أحدِّثك عنه وألفت نظرك إليه، تلك الكريات البيض والحمر، فمن الذي جعل من الكريات البيض جنوداً مدافعة، ومن الذي جعل لها في الدم أعداداً

معيَّنة؟. ومن الذي جعلها تفرز على الجراثيم الضارة ما تفرز من ترياق؟. من الذي جعل لها في جسم الإنسان مراكز للتجمُّع، وبنى لها القلاع والحصون؟. من الذي يجعلها تشعر بالخطر إذا داهم ناحية من النواحي؟. فإذا هي تجري مستنفرة إلى الجهة التي نزل بها العدو، وإذا هي تقف له وراء خطوط الدفاع بالمرصاد، ثم تقاتل وتقتل، وكلما خلت أمة نشأت أمم، وما تزال ملازمة مواقع الخطر تناضل وتجاهد حتى يكتب لها النصر المبين، ثم تعود إلى مواقعها الأولى لا لتستريح بل لتعود تحرس وترقب وترابط للعدو من جديد.

ولا أحدِّثك عن الكريات الحمر ولا أفصِّل بالكلام عن وحيدات النوى وكثيرات النوى، كما لا أحدِّثك عن العظام وتشكُّلها والأعصاب وأعمالها، والغدد وأنواعها ووظائفها، ولا أحب أن أطيل لئلا أبتعد بك كثيراً عن الآية التي نحن بصددها، وأدع لك بأن تفكر بذاتك، وتحاكم وتقايس وتقارن وتقدِّر، ثم تقول في نفسك: أليس الذي بيده هذه الأجهزة العديدة وتلك الأعضاء، أليس الذي يوجد في كل طرفة عين ما يوجد من حجيرات وكريات؟. أليس الذي بيده القلب ينبض، والصدر يعلو ويهبط، والدماغ يتلقى من الإشارات ما يتلقى ويرسل ما يُرسل؟.

أليس الذي بيده الكبد والطحال والجهاز الهضمي والبولي والدوران، وكل ما في جسم الإنسان من عوالم وأكوان؟. أليس الذي بيده الروح وبيده النفس وبيده وحده الحياة، هو الملك ملك الناس؟. أما وقد حدَّثتك بما حدَّثتك به عن كلمة ﴿رَبِّ النَّاسِ﴾ و ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ بما انفسح له المجال.

فلننتقل الآن إلى كلمة ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ فنقول:

إذا كانت كلمة ﴿رَبِّ النَّاسِ﴾ تشير إلى المربي الذي يمد الناس بما تتوقف عليه حياتهم من حاجات، وكلمة ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ تشير إلى من في قبضته هذا الإنسان، وما فيه من نفس وروح وجسد، وإن شئت فقل من بيده كل عضو وكل ذرَّة من هذا الإنسان، فإن كلمة ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ تشير إلى من إليه تؤول أمور هذا الإنسان وتحويله من حال إلى حال.

وهكذا **فالرب**: هو المربي والممد بالحاجات. **والملك**: هو القابض الذي بيده كل ما في الإنسان، **والإله**: هو المتصرِّف بشؤونك والذي إليه وحده تؤول جميع أمورك. وإذا كان للتربية كما كنا بيناه مجالات ونواح مختلفات، فللألوهية نواحٍ ومجالات نعرِّفك ببعضها فنقول:

لنرجع إلى جسم الإنسان وننظر إلى ما فيه من أجهزة وأعضاء، ولندقق في حركات هذه الأجهزة وسيرها، ثم ارتباطها ببعضها بعضاً، وكونها تعمل متضامنة متكافلة على تأمين حياة هذا الإنسان. فمن الذي يديرها جميعاً ويتصرَّف بها هذا التصرُّف المنظَّم؟. فإذا هي تعمل وإذا هي تتحرك وإذا هي تقوم بوظائفها في اتساق وانسجام.

أرأيت العين هذه الكرة الصغيرة، هذه الغرفة المظلمة التي قد لا يتجاوز قطرها اثنين من السنتيمترات، ترى كيف تجري فيها الرؤية، وكيف ترتسم على صفحتها الحساسة ظلال الأشياء؟. من الذي يضيِّق مداخل الأشعة منها إذا كان النور شديداً، ويوسِّعها إذا كان ضئيلاً بنسبة تجعل الأعصاب الناقلة للاحساسات البصرية، لا يختل شعورها ولا يضطرب أمرها، فإذا الحزم الضوئية الداخلة إلى تلك الغرفة في عدد مناسب لا يزيد ولا ينقص عن الحاجة.

من الذي يضغط هذه الكرة ضغطاً مركَّزاً بصورة تجعل الخيال يرتسم على صفحتها الحساسة بدقة، فإذا هو لا يتقدم البؤرة ولا يتأخر عنها جزءاً من ألف من شعيرة بل هو على بعده المطلوب، فإذا الرؤية منيرة وإذا هي غاية في الصفاء والوضوح، وتتقدم من الأشياء وقد تتقدم منك الأشياء وتنظر إلى بعيد تارةً وأخرى إلى قريب، وتلتفت عن شمال ويمين، وتتجاذب معك وبحسب نظراتك جميع أجهزة العين، وبأقل من القليل فإذا كل ما تراه وتنظر إليه ظاهر بيِّن لا اضطراب فيه ولا زوغان.

فمن الذي على اللحظات له التصرُّف في هذه العين فإذا هي أدق من كل جهاز مصوِّر، وأسرع من كل آلة بصرية؟. من الذي يركِّزها ويصرِّف أمورها في كل لحظة؟. هل لك في ذلك أي إشراف أو أي إرادة؟. أليس المتصرِّف بهذا الجهاز على الدوام هو الله وحده؟. أليس هو الإله إله الناس؟.

ثم ارجع إلى القلب هذه القطعة الجوفاء من العضلات الحمر، انظر إليه يخفق في الدقيقة الواحدة ثمانين خفقة ما بين انقباض وانبساط.

من الذي يحرِّكه هذه الحركات المنظَّمات، ويسوق له تلك الكمية المناسبة من المصل تنصب بين شغافيه، فينزلق وينقبض وينبسط دون تعب أو عناء؟. هل لك في ذلك تصرُّف، وهل لأحد من العالمين في قلبك تصرُّف أو إشراف؟. أليس المتصرِّف به هو الله سبحانه الذي يصرِّف ويدبِّر الجسم والكون ككلٍّ ولا إلَه سواه؟.

وانظر إلى الرئتين هاتين القطعتين الإسفنجيتين ذواتي الحويصلات والقصيبات، من الذي يجعلهما في الدقيقة الواحدة يبدِّلان ست عشرة مرة ما فيهما من هواء؟.

من الذي يقبض العضلات الناظمة لأمرهما ثم يبسطها، فإذا الشهيق والزفير عملان متتاليان لا ينقطعان في يقظةٍ أو منام؟. أأنت المنظِّم؟. أأنت الذي تطرح غاز الفحم وتجتذب مولِّد الحموضة من الهواء؟. أأنت الذي تعيد الدم المصفَّى منهما إلى القلب، ليسوقه نقياً محضاً إلى الجسم؟. ألك في ذلك إرادة أو تصرُّف؟. أم تلك يد الله سبحانه إلَهك وإلَه الناس.

ولا أريد أن أفصِّل لك في توافق حركات القلب والرئتين، ولا أن أتغلغل في التفصيل، وليس يتسع المجال كثيراً لذكر ذلك التوافق بين ذانيك العضوين الرئيسيين، فإذا الرئتان تقومان بعملية التصفية بمعدل ست عشرة مرة في الدقيقة، وإذا القلب ينبض بنفس المدة ثمانين نبضة، ولو أكثر القلب من نبضاته أو خفَّف، ولو زادت الرئتان أو أنقصتا لوقع خلل وفسد النظام. فمن الذي بإشرافه الدائم يحكم السير في جسومنا، ويؤمِّن المقتضيات؟. من الذي يقيم التوازن والتوافق بين حركات الأعضاء، أليس ذلك هو بيد الله وحده إلَه الناس؟.

ولنسر الآن إلى الكبد والطحال والمعدة والأمعاء، وجميع ما في البطن من غدد وأحشاء، تجد في كل ذلك انتظاماً وانسجاماً في العضو منها ومن مثيلاتها، ما ذلك كله بمختلفٍ بعضه عن بعض في سيره وقيامه بعمله، بل كل ذلك يعمل متعاوناً، وكل ذلك يعمل متضامناً متكافلاً، ليؤمِّن لهذا الجسد وإن شئت فقل لهذه المجموعة من الأعضاء وحدة وانسجاماً، فإذا الإنسان هذا المعمل العظيم ذو المختبرات الكيماوية، والمصانع والآلات، وكل ما يحتاجه في صناعته من وسائل وخامات، وإذا الإنسان هذه المدينة الجارية ذات المخازن والعنابر الحاوية كل ما يتطلبه سكانها من ضرورات الحياة، وإذا الإنسان هذه الدولة السيارة ذات الجنود والإدارات العامة والمصالح المختلفة والمعسكرات، وإذا الإنسان هذا المخلوق الصغير، هذه الذات التي تجري على

الأرض، إن هي إلا كون من الأكوان، كل ما فيه يجري ضمن نسب وحدود ووفق معادلات وكل ما فيه يعمل بنظام، وكل ما فيه يتعاون ويتجاذب وما من أحد له فيه من تصرُّف، والمتصرِّف هو الله وحده وهو إلّه الناس.

هذه جولات ونظرات في جسم الإنسان، لو أنك جلست تدقِّق وتتعمَّق على النسق الذي بينته لك، لأخذت بمجامع قلبك عظمة من إليه وحده يؤول أمرك، ولعرفت إلّهك الذي له وحده التصرُّف بجميع شؤونك، ذلك هو الله سبحانه إلّه الناس الذي لا يعلمون إلا القليل والنزر اليسير من عنايته بهم ولطفه وتدبيره أمورهم، أما أنت فكلما زدت به علماً زدت له تعظيماً وإجلالاً، وامتلأ قلبك منه تعالى خشيةً كما امتلأ منه رسول الله عليه أعظم وأفضل التعظيم والإجلال والخشية من الله، قال تعالى:

{إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ}[1].

هذا وبعد أن ذكرت لك ما ذكرت لابد لي من أن أنتقل بك إلى مجال آخر تجول معي فيه وأجول معك لنتعرف إلى طرف آخر من معنى كلمة ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ فنقول: إذا كان الأمر كما ذكرناه من قبل، وأدركتَ أن عين الله تعالى ترعى بعنايتها الحكيمة وتصرُّفاتها اللطيفة الرحيمة جميع الأعضاء وسائر الأجهزة والمصانع التي تعمل في جسم الإنسان، أفتظن بعد هذا كله أن عينك تستطيع أن تطرف طرفةً، وأن لسانك يقوى على أن يلفظ كلمةً، وأنَّ يدك تقدر على أن تتحرك حركةً، وأن رجلك تخطو خطوة واحدة، وإن شئت فقل:

هل تستطيع أيها الإنسان أن تقوم بأي عمل من الأعمال إلا بإذن الله وبحولٍ وقوةٍ منه تعالى وهو الذي بيده الروح والحركة والحياة؟.

أليس الذي بيده عينك يتصرَّف بأجهزتها وفق ما رأيناه وبيَّناه، ثم هو يمدها دوماً بكل ما يلزمها من سوائل وإفرازات، وأغذية ومواد هو الإلّه الذي لا تستطيع العين أن ترى شيئاً إلا بإذنه، فإن شاء أراها وإن شاء منعها وجرَّدها من كل خصائصها وقواها، وإن شاء أراها من الحقائق ما لا يراه الناس جميعاً كما أرى رسوله المحب له الرحيم ومن تابعه من المحسنين المخلصين الصادقين،

---

[1] سورة فاطر: الآية (٢٨).

وإن شاء حجبها عن رؤية ما يراه غيرها، وإن شاء حسّن في نظرها الأشياء وزانها، وإن شاء قبَّحها وشانها وذلك على حسب مسير كل إنسان ومحض اختياره وهواه ولما فيه بالنتيجة الخير لكلٍّ وعلى حسب مسراه!.

ولندع العين ولننتقل إلى اللسان وما هو مرتبط به من الأعضاء التي تستعين بها على البيان فنقول:

أليس الذي يمدُّ هذا اللسان بما يمدّه به من غذاء، فيجري له الدم الصافي ويحسر عنه ما خالطه من الفساد.

أليس الذي يحرِّك اللسان من يمينٍ لشمال، ومن أعلى إلى أسفل، ومن الخلف إلى الأمام، ثم يقبضه تارةً ويرسله أخرى ويحدِّبه حيناً ويقعِّره حيناً آخر، ثم يجعله دقيقاً مؤنفاً وغليظاً مجمعاً، ويدنيه من الثنايا العلوية طوراً ومن الأضراس طوراً، أليس الذي يحركه هذه الحركات المختلفات التي يحركها جميعاً ويكررها أو يكرر بعضها بعدد ما يتطلبه النطق بجملةٍ من الجمل أو كلمةٍ من الكلمات، ثم يسخِّر معه الشفتين تنضمان وتنفتحان وتتقدمان وتتأخران وتتحركان مختلف الحركات تساعدها الأسنان وتعضدها حركة الفك الأسفل إلى الجهة التي يقتضيها لفظ الكلمة، ثم يؤيد ذلك الحلق واللهاة والحنجرة ذات العضلات الخاصة والأوتار المختلفات، أليس الذي يدبِّر ذلك كله يعمل متعاوناً متضامناً يساعد بعضه بعضاً وبثوان معدودات ليحصل التعبير عمَّا جال في النفس ودار في الخاطر وارتسم في الخيال، أليس الذي يتصرَّف بهذا اللسان وتوابعه هذا التصرُّف الدقيق السريع هو الإلٓه الذي إليه يعود هذا اللسان وإليه وحده يرجع أمره، فإن أمسكه وأسكنه فلا مرسل له من بعده، وهو الإلٓه إلٓه الناس!؟. أوليس تعالى هو الذي أنطق رسوله بما أنطقه به من بليغ البيان؟!.

أليس المشرف على هذه اليد تنمو وتتغذى ويسير الدم في عروقها غادياً رائحاً في الشرايين والأوردة دوماً، وينتقل الأمر في أعصابها ذات الحس والحركة، ويصل الغذاء فيها إلى كل منطقة لا بل إلى كل شعيرةٍ وذرة. أليس الذي بيده هذه العضلات وأوتارها وأغشيتها وأعصابها، هو الذي يتصرف وحده بهذه اليد فإن شاء بسطها وإن شاء قبضها، وإن شاء منحها من البأس والقوة، وإن شاء منعها من كل تصرُّف وحركة، هو الإلٓه إلٓه الناس؟. وكاليد الرجل لا تخطو ولا

تتحرك حركة، ولا ترتفع متأخرة ولا تنبسط متقدمة ولا تقوى على انتقال، إلا بإذن الله وبقوةٍ منه. وهكذا فالعين والأذن واللسان وكذلك اليد والرجل وكل ما في الإنسان. فلا إلّه سواه وهو سبحانه إلّه الناس ومن به تعالى رسوله استعاذ.

أما عرفت هذا وأدركته حق الإدراك، وعرفت أن الإنسان بيد الله تعالى وحده، أفتظن بعد هذا أن لأحد من الناس فعلاً وتصرُّفاً؟.

أتظن أن إنساناً على وجه البسيطة يستطيع أن ينفعك بشيء أو يضرُّك بشيء إلا من بعد إذن الله؟. فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قوة إلا بالله، ولا إلّه إلا الله وحده لا شريك له، وهو سبحانه الإلّه إلّه الناس.

هذه معاني عرَّفتنا بها هذه الآية الكريمة آية: ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾، فإن آمنت بهذا حق الإيمان فأنت مؤمن حقاً، وإلى ذلك أشارت الأحاديث الشريفة ومن ذلك قوله ﷺ لابن عمه العباس إذ يوصيه فيقول ﷺ:

**«يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك»**[1].

يريد بذلك ﷺ أن يبيِّن لنا أن الأمور كلها بيد الله تعالى، وأن الناس ليس لهم تصرُّف إلا بإذن الله، وأن الخير والشر متوقف أمرهما على هذا الإنسان، فإن صلحت نفسه وفعل ما يستحق عليه النفع والخير، سخَّر الله تعالى له الناس فعاملوه بالخير، وإن فسدت نفسه وفعل ما يستحق عليه الضرر والأذى، ساق الله تعالى له أناساً فعاملوه بما يستحق، وما لأحدٍ منهم قدرة على تغيير أو تبديل فيما كتبه الله لهذا الإنسان، بناءً على ما كسبته يده وما جناه.

وأشار ﷺ أيضاً إلى هذا المعنى الذي نحن بصدده في قول له ﷺ:

---

[1] الترمذي.

**«لكل شيء حقيقة وما بلغ عبدٌ حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه»**[1].

فالأمور كلها بالحق والاستحقاق بيد الله.. وإلى ذلك أشار القرآن الكريم في مواضع عدَّه من ذلك قوله تعالى:

{وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ..}[2].

وقد أعرب الرسل الكرام صلوات الله عليهم أجمعين عن هذه الحقيقة التي استقرت في نفوسهم بمناسبات ووقائع جرت بينهم وبين أقوامهم، فظهرت بطولاتهم للملأ وظهر إيمانهم، وعرَّفوا أعداءهم بأنهم لا يخشون أحداً إلا الله، وبيَّنوا لهم أن الفعل كله بيد الله سبحانه الإلّه، إلّه الناس.

وقد أشار القرآن الكريم إلى موقف رسول الله ﷺ من قومه، وأمره الله تعالى أن يبيِّن للناس ما استقر في نفسه من إيمان فقال تعالى:

{إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ، أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنظِرُونِ}[3].

فكيف أمكن له وهو واحد أن يواجه أمةً ويتحداها ويُسفِّه أحلامها الخبيثة بآلهتها من الأصنام بالهزء من سخافتهم بنسب الألوهية لمن لا أعين ولا أسماع ولا أبصار ولا أيد لها بقوله:

{أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا..}.

ثم لـمَّا قاموا بالوقوف ضده هدّهم هدّاً ووقف تجاههم وقوف سيد الأبطال يتحداهم كما بالآية السابقة فعجزوا وجبَّنوا ولم يستطع أحد منهم أن يمسَّه أو يلمسه لمساً بسوء {وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ}[4].

---

[1] رواه أحمد في مسنده والطبراني في الكبير عن أبي الدرداء.

[2] سورة يونس: الآية (١٠٧).

[3] سورة الأعراف: الآية (١٩٤-١٩٥).

[4] سورة المائدة: الآية (٦٧).

بل خارت عزائمهم وانحلَّت قواهم وأصابهم الجبن فانعقدت ألسنتهم وهم وهو ﷺ وجهاً لوجه فلمَّا رأوا عجزهم وخيبتهم وضعفهم واستكانتهم أمام هذا الجبل البشري الشامخ العظيم أتمَّ حديثه الشريف معهم مبيِّناً لهم الجانب العظيم المنيع الذي أمدَّه بما أرهب قلوبهم بقوله تعالى: {إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ}[1]. فهو الذي أيَّدني ودعمني وقوَّاني وأنطقني {وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ}. فاسلكوا سبل الهداية لتصبحوا صالحين فيؤيدكم ويدعمكم ضد الباطل وأهله.

وأشار القرآن الكريم أيضاً إلى إيمان سيدنا إبراهيم ﷺ، مبيناً موقفه من قومه وقد حاجُّوه وهدَّدوه فقال تعالى:

{وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ، وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ، الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ}[2].

وإن شئت أن تعرف مدى إيمانك بكلمة ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ فانظر إلى ما أجاب به سيدنا هود قومه وهو يردُّ على تهديدهم بما تضمنته الآية الكريمة في قوله تعالى:

{قَالُوا يَاهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ، إِنْ نَقُولُ إِلا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ، مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ ، إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[3].

فإن كنت لا تخشى أحداً إلا الله، وإن كنت لا ترجو إلا الله، وإن كنت لا تخاف تهديداً ووعيداً، وإن كنت ترى أن الناس كلهم بيد الله، وإنه لا حول لأحدٍ منهم ولا قوة إلا بالله فقد آمنت حقاً بكلمة ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾، وأنت حقاً في مقام العائذ بربِّه إلّه الناس كما عاذ به إمامك رسول الله ﷺ. وإن شئت أن ترى أثر الإيمان بهذه الكلمة في نفس الإنسان، فانظر إلى

[1] سورة الأعراف: الآية (١٩٦).

[2] سورة الأنعام: الآية (٨٠-٨٢).

[3] سورة هود: الآية (٥٣-٥٦).

مواقف رسل الله عليهم الصلاة والسلام، ومواقف من تابعهم من المؤمنين، مما أشار إليه القرآن الكريم في مواضع عدة.

انظر إلى موقف رسول الله ﷺ من قومه الذين كانوا يعبدون الأصنام، كيف وقف وحيداً فيهم، يبيِّن لهم بطلان مزاعمهم وفساد اعتقاداتهم، ولا يخشى أحداً إلا الله، وانظر إليه ﷺ يوم حنين، يوم بقي في ساحة المعركة وحيداً، وقد انصبَّت من سفوح الجبال نحوه عشرات الآلاف، وهو ثابت رابط الجأش وبنفسه أن يقابلهم جميعاً، لأنه يعلم أن الفعل بيد الله تعالى وحده وأنه إلٓه الناس.

وانظر إلى سيدنا إبراهيم ﷺ يدخل على معبد الأصنام، فيجعلها جذاذاً إلا كبيراً لهم، ثم يعود من حيث أتى، لا يتحرك منه خاطر بخوف من أحد من الناس.

وإلى سيدنا موسى ينقلب إلى مصر عائذاً من بعد غياب طويل، وهو يعلم ما أخفى له فرعون وقومه من ضغينة، فلا يبالي بأحد ويقف يجاهد ويناقش ذلك الطاغية مناقشة يحطِّم بها كبرياءه، ويبطل بها ربوبيته، ويبين له أنه رجل كسائر الناس غير عابئ بما يسمعه منه من تهديد لأنه يعلم أن الفعل بيد الله إلٓه الناس، وذلك حين قال له فرعون {إِنِّي لأَظُنُّكَ يَامُوسَى مَسْحُوراً}. فما كان جوابه إلا أن أجابه (وهو الملك الطاغية مدَّعي الألوهية وهو في أوج سلطانه وجبروته وحوله جنوده ورجاله) قال له: {وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَافِرْعَوْنُ مَثْبُوراً}[1].

**ومثبوراً**: أي لا فكر ولا دماغ لك بل أنت شخص مجنون. كلمة حق ضد سلطان جائر، فيا لها من شجاعة تعجز كافة الأبطال باستثناء رسل الله عن مثيلها.

وإن شئت أن تتطلع على نماذج وأمثلة أخرى، تشير إلى أن الله تعالى إلٓه الناس والفعل بيده تعالى وحده، فاقرأ سورة يوسف وتدبَّر ما فيها، تبدو لك هذه الحقيقة نيِّرةً جليّة. لقد أراد إخوته له هلاكاً وكادوا له كيداً فألقوه في غيابة الجب، وأراد الله له عزّاً ورفعةً، والله غالبٌ على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

---

[1] سورة الإسراء: الآية (١٠١-١٠٢).

واقرأ أيضاً سورة القصص وتدبَّر ما فيها، انظر إلى فرعون يذبح أبناء بني إسرائيل، ثم انظر كيف أن الله تعالى ساق سيدنا موسى إلى فرعون، وجعله يرْبى في أحضانه، وحرَّم المراضع على هذا المولود الصغير، حتى ردَّه إلى أمه والله غالبٌ على أمره!.

واقرأ سورة النمل والأنبياء، وسورة الكهف ومريم، وسورة الفيل والبقرة وآل عمران، لا بل أجِلْ نظرك في القرآن الكريم كله، تجده ﷺ داعياً به ومبيِّناً أن المتصرِّف بهذا الكون كله هو الله تعالى وحده إلّه الناس.

أما وقد عرفت طرفاً من المعنى الذي تنطوي عليه كلمة ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ وتبين لك أن المتصرِّف بأمور الناس لا بل بأمور العالمين هو الله تعالى وحده، فما يقع واقع إلا بعلمه ومن بعد إذنه، وما يستطيع أحد أن يجلب لك نفعاً وخيراً أو يدفع عنك سوءاً وضرّاً إلا بمشيئته سبحانه وإرادته. وإذا كان الأمر كما بيناه ووضَّحناه وهو حقاً ما بيَّناه ووضَّحناه، أفتظن بعد هذا أن الأمور في الكون تجري جزافاً وبغير حساب؟. أتظن أن الله تعالى يأذن لزيدٍ من الناس بأن يتفوَّه بكلماتٍ مؤلمة يجرح بها شعور الآخرين، أو أنه تعالى يُمكِّن إنساناً أن يبسط يده بالسوء لأحدٍ من العالمين، أو أنه يعين عدواً على أن يُغِيرَ على مدينة آمنة مطمئنة، فيلقي في قلوب سكانها الرعب ويروِّع الآمنين، دون أن تكون هنالك أسباب اقتضت وقوع هذه الحوادث واستلزمت هذه المداواة؟. أمن المنطق وهل من المعقول أن يعنى بك تلك العناية التي تحار بها العقول، ويشرف على كل جهاز من أجهزتك ذلك الإشراف الدائم الدقيق، ثم يعرِّضك من بعد ذلك للأمراض العضالة ويدعك نهبةً للعلل والجراثيم الفتاكة، دون أن يكون لهذا الرب العظيم في ذلك مراد وغاية ودون أن يكون ذلك مبنياً على قصدٍ رفيع، وحكمة اقتضتها الرأفة والحنان والرحمة؟. أفتدري مالك من حصاد أقوال وسيِّء أفعال اقتضى هذا العلاج المرّ وهذا الصعب من الأحوال؟!.

إن ذرَّةً من التفكير، إن عودة إلى ماضي الإنسان القريب، يوم كان في بطن أمه جنيناً، ويد التربية الإلّهية تكلؤه بعنايتها وفضلها وترعاه بعطفها ورحمتها، ثم نظرة في دوام تلك العناية الإلّهية لهذا الطفل الصغير، منذ خرج إلى هذه الدنيا حتى أضحى إنساناً سوياً ومخلوقاً كاملاً، واستمرارٌ في النظر بتلك التربية الإلّهية التي ما ينقطع خيرها لحظة أو طرفةً، ذلك كله إن نظرت

فيه أيها الإنسان، وذهبت تفكِّر ممعناً مُدَقِّقاً لسمعت في سّرِك صوتاً يناديك ويهمس في أذنك قائلاً:

إن جميع ما يعرض لهذا الإنسان من حوادث وأحوال من علل وأمراض، من هموم وأحزان، من مخاوف وأمان، من عسر ويسر، من ضيق في العيش أو بسطة في المال، جميع هذه الوقائع كلها إنما تجري ضمن الحكمة وضمن قانون ونظام، وإلى جانب ذلك هي كلها في خير هذا الإنسان، وهي جميعها في مصلحته اقتضتها العناية الإلّهية وكتبتها الرحمة واستلزمتها الرأفة والحنان.

فكما يعمل جسمك بجميع ما فيه من أجهزة وأعضاء وفق قانون ونظام، فكذلك ما من واقعٍ يقع لك، وما من حادثة تواجهك وتنتابك، وما من حالٍ من الأحوال التي تتعرض لها نفسك، إلاَّ وهي تجري وتقع وفق قانون ونظام. فهو سبحانه مُطَّلع على نفسك يطَّلع على ما تنويه وتعتزمه في كل لحظة من اللحظات، ولذا ينزل بك سبحانه ما يراه مناسباً لنفسك من علاج ودواء، فإن شئت تغيُّر الحال فغيِّر ما بنفسك، فإن الله تعالى لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم. وجميع ما يسوقه لعباده هو منه تعالى محض فضلٍ وخير وإحسان. وقد تتطلب مثالاً على هذا وتريد أن ترى كيف أن الله تعالى يُحمد على كل حال، وما أكثر الأمثلة في هذا المجال. إنك تستطيع بذاتك أن تنتزع الكثير من الأمثلة من واقعك وواقع من حولك، كما تنتزعها من التاريخ وممن ورد ذكرهم في القرآن الكريم من الأقوام. هؤلاء نفرٌ من بني إسرائيل تُحدِّثنا عنهم سورة البقرة، فتذكر لنا أن أولئك القوم لما فسقوا منحرفين عن طاعة الله وطاعة رسوله الكريم، لم يَدَعهم الله تعالى يتمادون في ضلالهم دون أن ينبِّههم إلى سوء أعمالهم، بل سلَّط عليهم عدواً جبَّاراً أخرجهم من ديارهم وذبح أبناءهم وشرَّدهم في الآفاق. وهنا وبهذه الشدة التي أنزلها الله تعالى بهم أنابوا وتابوا إلى ربهم وبارئهم فكانت هذه الشدة، وكان تسليطه العدو عليهم، رحمة من الله تعالى بهم وسبباً في صلاح نفوسهم، فلمَّا رجعوا وغيَّروا ما بأنفسهم أرسل الله تعالى لهم سيدنا داوود ملِكاً نبياً، فجمع شملهم ووحَّد كلمتهم، وبانضمامهم إليه وسيرهم تحت لوائه أعاد الله تعالى لهم عِزَّهم ومكانتهم، وخرج بهم سيدنا داوود يقاتلون جالوت وجنوده وكتب الله تعالى النصر لهؤلاء المؤمنين. قال تعالى:

{فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ}[1].

فانظر إلى رحمة الله تعالى بهذا الإنسان، لقد سلَّط الله تعالى ذلك الملك الظالم الجبَّار على الذين تنكَّبوا طريق الحق وما زال بهم حتى تابوا إلى الله وأنابوا إليه وما أن تابوا ورجعوا حتى ساقهم لقتال أولئك الكافرين، وكانت لهم النصرة عليهم وكان لهم التأييد على أولئك الكافرين، فلعلّهم يؤوبون إلى رشدهم ويخرجون مما هم فيه من عمى وضلال.

وإلى هذه الناحية، وإلى فضل الله تعالى على هذين الفريقين بل إلى فضله على الناس كافة فيما يسوقه لهم من أحوال أشارت الآية الكريمة في قوله تعالى:

{إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ}[2].

وهكذا فالمرض بعد الصحة، والصحة بعد المرض، وكل عسر ويسر وجميع ما ينزل بك من هم وغم وسرَّاء وضرَّاء وسائر ما يعامل به الله تعالى عباده من صنوف المعاملات، إن هو في الحقيقة إلا محض فضلٍ وإحسان، يريد به تعالى تنبيه هذا الإنسان وإيقاظه مما هو فيه من رقادٍ، وردَّه إلى التي هي أحسن له في الحال والمآل، وما يُشدد عليك وعلى الناس في أي أمر من الأمور، إلا ليرقى بهم وليتم نعمته عليهم ولعلهم يشكرون.

فيا أيها الإنسان قَدِّر رحمة خالقك بك وعذ بربِّ الناس ملك الناس إلَه الناس، واعلم أنه لا يريد لك إلا الخير، فإن عذت به حقاً وذلك لا يكون إلا بعد إيمان حقيقي مبني على نظر وتفكُّر واستدلال، فعندئذٍ تخلص من شر الوسواس الخنَّاس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس.

﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ، الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ، مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾.

**والوسواس الخنَّاس**: اسمان من أسماء الشيطان يشيران إلى صفتين من صفاته. فهو وسواس بما يلقيه في نفس الإنسان من خواطر سيّئة تحرِّضه على المعصية، وتزيِّن له الفسوق وارتكاب الجرائم، أو تبعده عن محبة الله وحسن الظن بِهِ والاستسلام لرأفته ورحمته. وتقع منك هذه

---

[1] سورة البقرة: الآية (٢٥١).

[2] سورة البقرة: الآية (٢٤٣).

الوسوسة ويلقيها في النفس حال انقطاعها عن الله، أو عند انصرافها إلى الأمور الدنيوية والانهماك بها انهماكاً ترافقه حال من الغفلة عن الله.

فإذا ما تذكَّر الإنسان ربَّه ورجع إليه مقبلاً بنفسه عليه، فهنالك يخنس ذلك الوسواس الخبيث، أي يتراجع متباعداً عن الإنسان خائفاً أن يحترق بنور الله. وهكذا فالشيطان ضعيف الكيد والتبعة كلُّها ملقاةٌ على عاتق الإنسان، فإذا أنت غفلت ونسيت، دَنَا منك ذلك العدو الخبيث يوسوس، وإذا أنت ذكرت الله وعدت إلى إقبالك تراجع متأخِّراً خانساً. ولذا علَّمنا الله تعالى أن نعوذ به دوماً من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس. وقد أراد تعالى بكلمة ﴿صُدُورِ النَّاسِ﴾ الإشارة إلى النفس المستقرَّة في الصدر والتي هي محل وساوس الشيطان، أما الطريق التي يصل منها الشيطان إلى النفس، فإما أن تكون خفية بواسطة الجنَّة وهم البعيدون عن الله من الجن وأما أن تكون ظاهرة جليّة بواسطة البعيدين عن الله من الناس. فإن أنت عذت بالله ملتجئاً إليه، خلصت من عدوك وانسدَّت في وجهه جميع الطرق التي يقدم منها إليك.

على أنه قد تسيطر عليك الوساوس في بعض الأحيان، وتشعر بها شعوراً شديداً أو تضيق بها ذرعاً لدرجة أنك تتمنَّى الموت وتخشى على نفسك من القطيعة والكفر، وقد تجدّ في البحث عن طريق للخلاص من هذه الوساوس وتجد المسلك صعباً ويشتد عليك الأمر، وتطميناً لك وتوضيحاً لهذا الحال أقول: ما الشعور بالوساوس إلا علامة الإيمان الصادق وما هذا الضيق الذي يعانيه المرء في ساعات انقطاعه إلاَّ دليل على ما في قلبه من الحياة.

أرأيت إلى العضو الميت لا يشعر بحرٍ أو برد ولا يحسّ بشيء من الأشياء؟. أرأيت إلى السمكة تضطرب وتضيق صدراً إذا هي خرجت من الماء وأضحت مهدَّدةً بانقطاع الحياة، فإذا هي ماتت سكنت ولم يبد منها أدنى اضطراب؟. وكذلك الذي لم يجد طعم الإيمان فهو ميت القلب لا يميِّز حالاً من حال ولا يشعر بقرب أو بعد ولا يعرف جفاءً من وصال إدباراً من إقبال. أما المؤمن فله تمييزه وشعوره، ولذا تراه يضيق بتلك الوساوس ويتمنَّى أن لو تحرق النار جسده ولا يحرق قلبه نار البعد عن الله، وما تزال به الشدة حتى يعود له إقباله وتعود له صلته، فإذا هو في رَوْحٍ وريحان وحياة ما يعدلها بحياة. فإذا أنت شعرت بهذه الوساوس وذلك الضيق

فاطمئن قلباً وقرَّ عيناً فأنت مؤمن حقاً، وقد وصف الله تعالى المنافقين والكافرين بأنهم قومٌ لا يعلمون ولا يشعرون. أما أسباب الوساوس والبعد، فإما أن تكون بميل القلب المؤمن الصافي إلى أهل الوساوس والبعد وهنالك تنطبع في مرآة النفس المؤمنة أحوال من تعلَّقت به ومالت إليه، وما يسعك في مثل هذا الحال إلا أن تقطع صلتك عن ذلك البعيد عن الله وتشكر الله تعالى أن حفظك من ذلك ونجَّاك، وتعوذ بالله من أحوال أهل البعد والجفاء، وفي الحال وبمجرد انقطاعك عن ذلك البعيد عن الله تعود لقلبك طمأنينته بربّه، ويرجع له صفاؤه وأنسه بالله، وتنمحي منه جميع الوساوس والخطرات. وإما أن تكون الوساوس ناشئةٌ عن ميلٍ لشيء من الشهوات الدنيوية الدنية، فإن القلب إذا استحسن شيئاً ومال إليه حلَّ هذا الشيء فيه وصرفه عن الله، وما جعل الله لرجلٍ من قلبين في جوفه.

فإذا أنت مِلْتَ بقلبك إلى شيء من الشهوات الدنيوية الدنيَّة، هرعَ الشيطان إليك وتيسَّرت أمامه السبُل إلى نفسك، فمدَّ إليها خرطومه يُزيِّن الشهوة ويوسوس لك بها طامعاً بك أن يوقعك فيها، ويخرجك عما كنت فيه من صلة بالله وإقبال عليه. غير أن المؤمن حينما يدنو منه الشيطان موسوساً، يشعر بوساوسه ونزغه، وسرعان ما يتذكَّر وصية الله تعالى له إذ يقول سبحانه في كتابه الكريم:

{وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[1].

وهنالك يلتجئ إلى الله تعالى مقبلاً عليه فيخنس الشيطان خانساً، ويتراجع مدحوراً، وتطهر النفس بإقبالها على ربِّها ممَّا علق بها، وتسمو لدرجةٍ أعلى مما كانت عليها سابقاً، وعندئذٍ يندم الشيطان ويتمنى لو أنه لم يدنُ منها مطلقاً. أما الحال الذي يريده لك الله تعالى دوماً، فهو أن تكون في حال من الإقبال الدائم عليه والالتجاء المستمر إليه، وبذا تظل في حرزٍ حريز وحصن حصين وقد وصف الله تعالى أهل الإيمان الذين بلغوا هذا المقام الرفيع بقوله تعالى:

{رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ}[2].

---

[1] سورة الأعراف: الآية (٢٠٠).

[2] سورة النور: الآية (٣٧).

وذلك هو الحال الذي اصطبغت به نفس رسول الله ﷺ، وأشارت إليه السورة الكريمة التي نحن بصددها في قوله تعالى:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ، مَلِكِ النَّاسِ ، إِلَهِ النَّاسِ ، مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ، الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ، مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾.

هذا ولقائل أن يقول بالغت كثيراً في الأمر لما تكلَّمت عن الوساوس التي تقع في النفس، فذكرت أنَّ الشعور بها علامة الإيمان الصادق ودليل المؤمن الحق. فهل تقع الوساوس في نفس امرئٍ آمن في صميمه بالله ورسوله، أم أنها علل وأعراض تبدو على صفحات نفس الإنسان ما دام سائراً في طريقه إلى الإيمان، حتى إذا ما انتهى إلى الإيمان واستقر في نفسه كل الاستقرار فهنالك تنعدم الوساوس وتزول، ولا يبقى لها في النفس من أثرٍ ووجود؟.

**وفي الجواب عن هذا نقول:**

لا نريد أن نطيل الكلام كثيراً بعد أن فصَّلنا في هذه الناحية تفصيلاً لكننا نذْكر الآية الكريمة التي تُوضح لنا الجواب بصورة جليَّة. فالله تعالى يقول في كتابه الكريم:

{إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ}[1].

ومن هنا يتبين لنا أن الوساوس قد تقع في النفس المؤمنة حتى الواصلة إلى درجة التقوى حال انقطاعها عن الله تعالى كما تقع في النفس البعيدة عن الله أيضاً، لكن المؤمن كما تفيد الآية لا يسترسل مع الشيطان فيما يلقيه في نفسه، بل إنه يتذكَّر في الحال فيرجع إلى ربه ويلتجئ إليه، وهنالك يستنير بنور الله ويرى ويُبصر ما في هذه الوساوس التي ألقاها الشيطان في نفسه من أذى وهلاك، بخلاف البعيد عن الله الذي لم يتحلَّ قلبه بحلية الإيمان، فما أسرع ما تنطلي عليه حيل الشيطان ومكره فيقع فيما يقع فيه، ولا يدري ما ستجرُّه له تلك الأعمال من إهانة ودناءة وانحطاط. وهكذا فالوساوس تقع في كل نفس سواءً كانت مؤمنة أو كافرة، لكن الفرق بين النفسين، أن النفس المؤمنة تشعر بالجهة التي وردت منها تلك الوساوس، وهنالك تعوذ بالله منها، فترى ما في تلك الوساوس من خطر وما تجره إليها من أذى وضرر. أما النفس البعيدة

---

[1] سورة الأعراف: الآية (٢٠١).

الكافرة فلا تشعر بشيء من ذلك أصلاً، حتى أنها على الرغم من تزيين الشيطان لها وتلاعبه بها، قد تنكر وجود الشيطان بها بالكلية وتزعم أن تلك الأعمال التي زينها لها، إنما هي إلا انفعالات وميول نفسية محضة وما على النفس من قيود دينية تتقيد بها، بل لها في أن تفعل ما تشاء وتريد ملء الإطلاق والحرية.

ذلك هو حال الرجلين تجاه وساوس الشيطان ومكائده، هذا يدنو منه الشيطان موسوساً فيعوذ بالله منه ملتجئاً خائفاً وبذلك يصدُّه خائباً ويردّه خاسراً. وذلك يوسوس له الشيطان فيهفو لوساوسه مُرحِّباً فيكون له قريناً وساء قريناً وصاحباً.

تلك هي كلمة عن (**الوساوس**) وحال الأنفس منها، على أنَّ هنالك نوعاً من الخواطر تتشابه مع الوساوس من حيث وقوعها في النفس، وتختلف عنها من حيث إنها لا تقع لا بل يستحيل أن تقع في نفس أهل الإيمان، وهذا النوع من الخواطر إنَّما يُسمَّى بخواطر الشك والارتياب، ولعل هذه الخواطر التي تقع في النفس هي التي عنى السائل بسؤاله وحُقَّ له أن يقول:

إنَّ مثل هذه الخواطر قد يجدها المرء في طريقه إلى الإيمان حتى إذا ما انتهى في سيره للإيمان الصحيح وتبوَّأ منزلةً فيه، فهنالك تنعدم بالكلية ولا يَتَأَتَّى لها أن تقع في نفسه البتة.

والحقيقة أن الإيمان يتنافى كلِّياً مع الشك والارتياب، فما دام المرء تساوره الشكوك في وجود الله تعالى أحياناً، وما دام لا يصدق حيناً ويرتاب حيناً فذلك دليل على أنه لم ينته بعد إلى الإيمان، إذ ليس بعد إيمان صادق ذرَّة من شك أو ارتياب، قال تعالى مُعرِّفاً أناساً حسبوا أنفسهم وصلوا مراتب الإيمان وما انتهوا بعد إليه، بما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: {قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}[1].

وهكذا فما دمت لم تسلك طريق الإيمان التي نوّهنا عنها من قبل والتي رسمها وبيَّنها القرآن الكريم في مواضع عدَّةٍ منه، فلا بد أن تساور نفسك خواطر من شكوك تشعرك بأنك على خطر عظيم، وأنك لم تصل بعد إلى الإيمان الصحيح.

---

[1] سورة الحجرات: الآية (١٤-١٥).

فلْتُسارعْ ولتغْذِ السير وإنه لا بُدَّ لك من النظر تباعاً في الكون، ولا بدَّ لك من التفكير المتتالي بآياته قبل أن يوافيك ريب المنون وينزل بساحتك الموت فتموت ميتة الخاسرين.

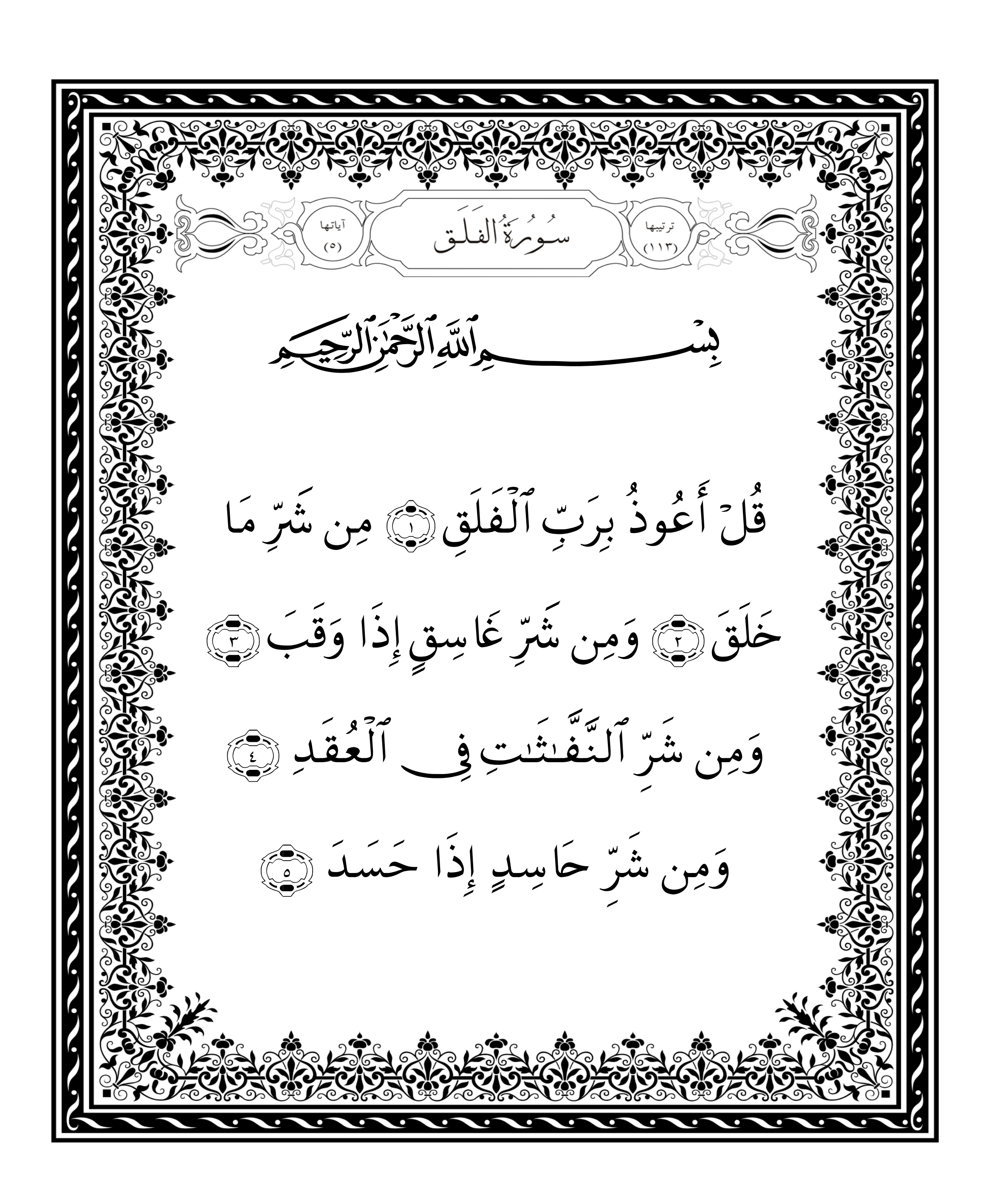
أما الذين نظروا وفكروا وجاهدوا في الله حق الجهاد فلا بد أن يصلوا إلى بغيتهم ولا بد أن يهديهم الله، قال تعالى:

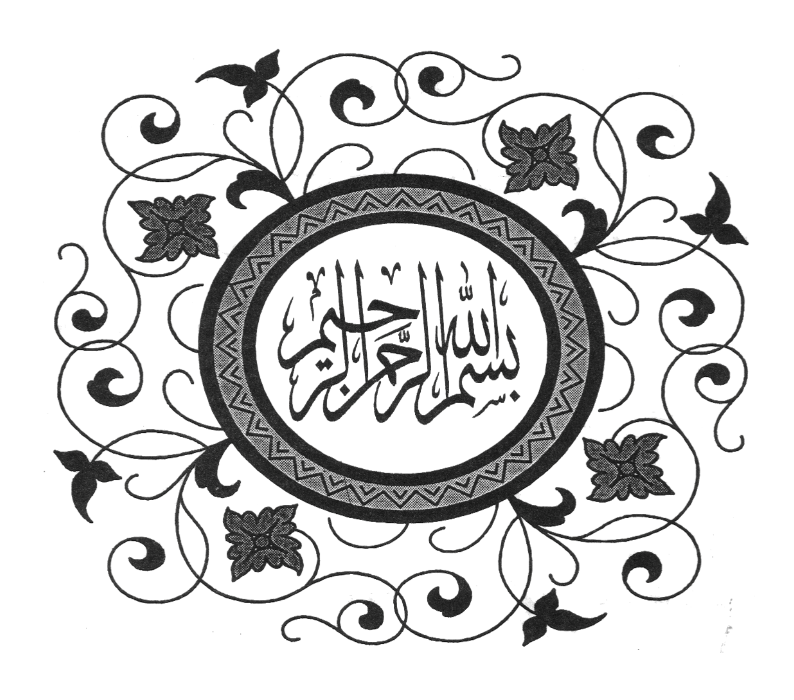
{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ}[1].

والحمد لله منشي الخلق من نوره ومُخرج من شاء من عباده من الظلمات إلى النور

[1] سورة العنكبوت: الآية (٦٩).


سُورَةُ الفَلَقِ


ترتيبها (١١٣)
سُورَةُ الفَلَق
آياتها (٥)
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا
خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾
وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾
وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾




لعل أول ثمرة تجنيها من بعد تفكيرك بسورة الناس، وإيمانك بربِّ الناس أنَّك تبدأ في التَّدرُّج في طريق المعرفة، معرفة المربي ورؤية شمول هذه التربية. إنَّ نظرك لا يعود يقف عند تربية الناس والعناية بهم سواء في مجالات خلقهم في بطون أمهاتهم أو طفولتهم من بعد ولادتهم، أو العناية بهم عند بلوغهم أشدَّهم وتأمين جميع احتياجاتهم. بل إن إيمانك هذا ينقلك إلى مجالات أخرى وآفاق جديدة ما كنت تعهدها من قبل ولم تكن لتخطر لك على بال.

إنك الآن وبعد إيمانك بربِّ الناس تشاهد إذا جلست تفكِّر في أمر تربيتك جنيناً في بطن أمك، أن هذه التربية ليست قاصرة عليك وحدك، بل إنما تشمل الأجنة كلها، وأن هذه اليد التي أشرفت عليك فخلقتك وصوَّرتك وركَّبتك جنيناً، هي التي خلقت بطون أمهاتكم، وهي التي منحت وتمنح كل حيوان من الهيئات والأشكال والأعضاء ما يساعده على القيام بوظيفته، والعمل الذي أُنيط به في الوسط الذي سيعمل فيه.

ويتَّسع أفق التفكير لديك ويتوسع، فترجع عاجزاً عن إدراك نهاية لهذه التربية لجميع الأجنة، وتخلص إلى نتيجة جديدة، هي أنك ترى عظمة هذه التربية وسعة آفاقها، فتشهد أن الله تعالى عزيز حكيم وواسع عليم.

ثم تنتقل من عالم الحيوان، وينقلك إيمانك إلى عالم النبات، فتشاهد فيه بذوراً وتشاهد الحبوب مستكنة في باطن الأرض، وتشاهد التربية الإلَهية تحوط بكل بذرة وكل حبة وكل شجرة ونبتة، ويتسع أفق التفكير لديك وتتوسع الرؤية فتشاهد الإمداد الإلَهي بالتربية يحوط جذور النبتة فيحضِّر لها المواد اللازمة للامتصاص، كما يحوط الساق والأوراق فيمدها بما تحتاجه في التنفس والتمثيل لا بل هو مع كل ورقة ومع كل برعم وزهرة ومع كل ساق وجذر وثمرة في النبتة الواحدة.

وينقلك التفكير وتبصرك المشاهدة بالأسماك في بحارها وأنهارها، والطيور في أجوائها، والجراثيم في أوساطها وأعمالها، والنجوم في أفلاكها ومجاريها، والمياه في منابعها ومستودعاتها، والرياح في جريانها وسكونها، والسحب في تألُّفها وتفرُّقها، والأمطار والثلوج في هطولها وبديع صنعها، وما تزال تشاهد وتعقل وتشاهد وتسبح نفسك في خضَّمٍ من المعرفة بهذه التربية، وتعظِّم وتستعظم وترى أن الله تعالى لا تقتصر تربيته عليك ولا على الناس فقط، بل تشمل الكون كله، وأنه سبحانه ربُّ الفلق، فما من مخلوق وُجد أو سيوجد وما من كائن ظهر أو سيظهر، إلا وهو مشمول بهذه التربية محوط بهذا الإمداد والعناية الإلَهية.

وهكذا إذا أنت سمعت رسول الله ﷺ يبلِّغك قائلاً:

{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ}.

وأعطيت هذه السورة حقها من التأمُّل والتدبُّر والنظر والتفكُّر حتى آمنت برب الناس، فهنالك ينقلك إيمانك إلى درجة أعلى، وتغدو أهلاً لأن تسمع منه ﷺ ما يتلوه عليك في سورة الفلق فتدرك ما تشير إليه هذه الكلمة (**الفلق**) من بعد أن شهدتها شهوداً وعقلتها عقلاً.

وإذا كان الناس يدركون من كلمة (**الفلق**) معنىً واحداً، ويظنون أنها قاصرة على الصبح تنشق عن نوره الساطع ظلمات الليل البهيم، فإذا هو بادٍ ظاهر الضياء، فإن كلمة (**الفلق**) في حقيقتها تشمل كل مخلوق وكل موجود من الموجودات، نعم إنها تشمل كل مخلوق شقَّت له يد العناية الإلَهية طريقاً إلى الوجود، فبدا كالصبح ظاهراً للعيان من بعد أن لم يكن من قبل شيئاً مذكوراً، لا تراه عين ولا تشعر به نفس ولا يعلم بوجوده أحد من المخلوقات.

فالله سبحانه وتعالى فالق الإصباح، يشق لك ظلمات الليل فيبدي لك منها النور والضياء، فإذا بالصبح الذي شقَّ الله تعالى عنه الظلمات وأظهرها للعيان يسمَّى "**فلقاً**"، والله تعالى فالق الحب والنوى، يشق الحبة والنواة فيبدي لك منها نبتة خضراء ذات سويقات صغيرة، وجذوراً وأوراقاً، فإذا النبتة التي شقَّ الله تعالى طريقها إلى الوجود وأظهرها من بعد أن كانت منطوية في خفايا علمه تعالى تسمى "**فلقاً**".

وكذا البراعم تبدو على الأغصان، والأزهار تتفتح عنها البراعم كما تتفتح عن الأوراق، ثم الأزهار تنعقد منها الأثمار، والبذور تتكون في باطن الثمرات، وإن شئت فانتقل معي إلى الطعوم والمذاقات، والروائح العطرة والأشكال، والخصائص والألوان والمواد المختلف تكوينها بالتربية الإلَهية في شتى الأقاليم والأوساط، دون حصرٍ ومصرٍ على بحار أو أنهار وسهول أو جبال، وأرض أو سماء، كل ذلك بما تشق له يد التربية الإلَهية طريقه إلى الوجود في كل لحظة وآن يسمَّى فلقاً، لاشتراكه في الوصف مع الصبح الذي تشق له يد التربية الإلَهية طريقه إلى الوجود، ومن بعد انمحائه في غياهب الظلمات واختفائه في بطون العدم.

**فالفلق**: هو كل شيء يظهر من الخفاء إلى العيان. وهو يشمل كل ما يُظهره الله تعالى لك ومن أجل حياتك من ظلمة الغيب والخفاء إلى حيِّز الوجود والعيان ومن عالم الغيب إلى عالم الشهود.

وكلمة (**الفلق**) إنما تلفت نظرك إلى عظمة هذا الشيء، إلى دقَّة تكوينه إلى حسن تنظيمه، إلى حكمة خالقه إلى كل ما يتبدّى فيه من الآيات الدالّة على خالقه وموجده، هذه الآية تقول:

انظر أيها الإنسان إلى كل ما يخرج ويظهر من المواد والأثمار التي بها حياتك وبقاؤك، ثم فكِّر ودقِّق وتعمَّق في التفكير في ذلك، فكِّر في هذه الحركة الدائمة والنظام القائم الذي بموجبه تخرج النباتات وتتولَّد الثمرات أيضاً فترة ففترة وآناً بعد آن، إنه لو لم يكن خالق يخلق ومُوجد يُوجد لما استمر السير ولانقطع الظهور والخلق، بل لصار العالَم كله إلى اضمحلال، فكِّر في ذلك كله تهتدي منه إلى خالقه.

ولو أننا أردنا التوسع في كلمة (**الفلق**)، لما وسعنا الوقت مهما امتد وطال، غير أن النظر في هذا الكون القائم على هذا النظام، والتدقيق فيما يظهر فيه من مخلوقات آناً بعد آن، وإعمال

الفكر وإجالة الطرْف فيما يقع عليه النظر من المخلوقات، وما يدل عليه هذا الخلق من علم وحكمة وفضل ورحمة وحنان، كل ذلك يزيدنا علماً بهذه الكلمة، كلمة (**رَبِّ الْفَلَقِ**) ويزيدنا تعظيماً بصاحب هذه التربية وهنالك نستطيع أن نعوذ به حقاً مقتدين برسول الله ﷺ فإذا ما سمع أحدنا رسول الله ﷺ يتلو عليه قوله تعالى:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾

عرف من هذه الكلمات معانٍ كانت نفسه شهدتها، وذكر أشياء لا تحصى كان نظر النفس قد سرى بها جميعها، فكانت هذه التلاوة له تذكرة وذكرى، وكانت هذه التلاوة سبباً في عياذه برب الفلق من جديد، ووسيلة لانغماسه في حضرة القرب الإلَهي مرةً أخرى.

ومما يؤيد لك هذا المعنى الذي ذكرناه ويبين لك أن كلمة (**الفلق**) تشمل الخلائق كلَّها ما ذكره تعالى في الآية الثانية إذ قال سبحانه:

﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾

**والشر**: هو الشهوة الخبيثة التي تتولَّد في نفس المخلوق عند إعراضه عن الله. وأما في هذه الآية فإنها تعني الأذى المتولِّد عن الشهوة والضرر الناشئ عنها بعد خروجها من النفس إلى حيِّز العمل.

**وخلق**: هنا تعود على الله. فبالله تعالى يكون الخلْق، أي يكون خروج ما في النفس إلى الوجود، ومنه تعالى يتم الإمداد بالفعل، فالمخلوق يشتهي ويختار في نفسه وبعد ذلك يحصل الخلق من الله تعالى، ويكون مجمل المعنى في قوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾:

أي: أعوذ بالله مما ينبعث عن المخلوق من أذى وضرر خَلَقَهُ الله عند شهوة هذا المخلوق واختياره.

وهكذا فالعياذ برب الخلائق به خلاص وحفظ من شر الخلائق كلِّها، وذلك طرف مما نفهمه من مطلع هذه السورة التي يخاطب الله تعالى بها رسوله الكريم إذ يقول سبحانه:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ، مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ .

أي عرِّف عبادي وبلِّغهم أنك عائذ بربِّ الفلق ومُحتمٍ به من شر كل مخلوق، فما يستطيع أحد من الخلق جميعاً أن يمسَّك بأذى وضرر، وفي الحقيقة الخلق كلهم بين أصبعين من أصابع الرحمن وجميعهم في قبضته تعالى، فلا حول لأحد منهم ولا تصرُّف، وليس يستطيع أن يقوم أحد منهم بأي عمل من الأعمال إلا بحول منه تعالى وقوة وإمداد، فإذا أنت عذت بالله محتمياً به فمن يستطيع أن يمد لك يداً بسوء أو ضرر؟. أتظن أن لأحد فعلاً؟. أتظن أن لمخلوق قوة؟. أتحسب أن مخلوقاً من المخلوقات يستطيع أن يخطو خطوة أو يتحرك حركة أو يقول قولاً أو يتسلَّط بأذى إلا من بعد إذنه تعالى وإرادته؟.

وإذا كنت في مقام العائذ بالله فهل تظن أنه تعالى وهو رب الفلق يمكِّن أحداً من أن يمد يده لك بالسوء، وقد دخلت في كنفه تعالى وعذت به واحتميت بحماه؟. لقد لذت بجانب عظيم.

هذا ما تريد أن تبعثه هذه الآية الكريمة في نفسك، إنها تبعث في نفسك الطمأنينة والاستقرار، إنها تبعث في قلبك السكينة والشجاعة والأمان، إنها تعرِّفك أن المتصرِّف في هذا الكون هو الله تعالى وحده، فإن عذت به حقاً دخلت في حصنٍ منيع وحللت في أمنٍ وأمان كما حلَّ بذلك رسول الله ﷺ، وذلك بعض ما نفهمه من كلمة:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ، مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾.

لكن هل المراد من الآية الكريمة أني بمجرد عياذي بالله أخلُص من الشر، أم أن عياذي بالله يُنتج في نفسي أثراً يكون من ضروراته أن يحفظني الله من كل شر؟.

الحقيقة أن عياذ المرء بربه ربِّ الفلق يجعله يدخل في كنف الله تعالى وحرزه، وهذا الدخول في كنف الله يطهِّر النفس من كل درن إن كان بها درن وإن كانت نقية فإنه يحول دون تلوثها بشيء من الأدران، وما دامت النفس نقية من الأدران فلا سلطان لأحد عليها أياً كان، لأن هذا التسلُّط لا يكون إلا بإذنه تعالى، النفس النقية الطاهرة بما أنها ليست بحاجة إلى تأديب أو تنقية لذلك فإنها تحفظ من كل أذى أو تسلُّط. وبما أن نفس رسول الله ﷺ أنقى نفس بمداومتها على ذكر الله وعدم انقطاعها أبداً عن الله فحاشا لله أن يمكِّن مخلوقاً من الإنس أو

الجن أن يمسَّه أو يلمسه ﷺ بلمسة أذى لالتجائه الكليّ إلى الله فكفاه {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ..}؟. {..وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ}[1].

{..وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ}[2].

{..قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنظِرُونِ}[3].

فكل ما قيل عنه ﷺ من أن بنات لبيد اليهودي سَحَرْنَهُ أو أن رباعيته الشريفة كُسرت في أُحُدْ أو ضربه أحد في الطائف، إن هي إلا من دسوس اليهود الأذلاء بسبب طرده إياهم من الجزيرة العربية وكل من يأخذ بأقوالهم الخبيثة فهو منهم تشابهت قلوبهم، بل كلهم أعداء الدين أعداء الله ورسوله، ودسوسهم مردودة عليهم لأن القرآن نسف أكاذيبهم ولأن رسول الله ﷺ دوماً مستعيذ بربِّ الفلق من شرِّ ما خلق ومن شرِّ غاسق إذا وقب ومن شرِّ النفاثات في العقد.

فالمؤمنون حقّاً لا سلطان للشيطان عليهم لقوله تعالى:

{إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ، إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ}[4].

فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل: فما دام الشيطان أخسأ من أن يتسلَّط على المؤمن، بل ويفرُّ هرباً من عمر بن الخطاب للحديث الشريف:

**«إني لأنظر إلى شيْطَاني الإنس والجن قد فرُّوا من عمر»**[5].

**«يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده مَا لَقِيَكَ الشيطان سالكاً فجاً إلاَّ سَلَكَ فجّاً غيره»**[6].

وفي الحديث الآخر: **«إنَّ الشيطان ليفرُّ منكَ يا عمر»**[7].

وبالآية فسلطان الشيطان على من يتولاه لا على رسول الله ﷺ، وعلى المشركين لا على رسول الموحّدين.

---

(1) سورة الزمر: الآية (٣٦).

(2) سورة المائدة: الآية (٦٧).

(3) سورة الأعراف: الآية (١٩٥).

(4) سورة النحل: الآية (٩٩-١٠٠).

(5) رواه الترمذي في سننه رقم ٣٩٣٨ ج١٠ ص١٢٤.

(6) التاج الجامع للأصول ج٣ ص٣١١.

(7) رواه الترمذي رقم ٣٩٣٧.

فهل في عقول الداسيِّن على رسول الله عماء، هل في أفكار المضلِّين غباء حتى أدخلوا هذه الدسوس من أنَّ للشيطان على رسول الله ﷺ سبيل حتى يمرّضه فلا يدري "على حد زعمهم الخبيث الباطل" برواية بنات لبيد اليهودي أنَّ الشيطان كان يدخل على نسائه الطاهرات أم لا يدخل، بل بلغت بهم الصفاقة في رواياتهم أنه عليه السلام بقي تحت تأثير السحر وشياطينه /**١٨**/ **شهراً**، فهل انقطع الوحي بهذه المدة، أما قال تعالى:

{وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ}[١].

أفكان الوحي شيطانياً؟... وهذا طعن بالقرآن العظيم بأنه من وحي الشياطين، ولكن الشياطين تتنزل على أمثالهم.

{هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ، تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ}[٢].

مع أنه حقّاً لا تستطيع الشياطين أبداً حضور مجالس رسول الله ﷺ.

{وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ، وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ، إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ}[٣].. صدق الله العظيم.

ومما يؤيد ما قلناه أنَّ الشيطان ذاته لما رأى رسول الله ﷺ والمؤمنين معه ارتعدت فرائصه وفرَّ هارباً. و {نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[٤].

ومما يؤيد لك أيضاً ما قلناه ما ذكره الله تعالى في كتابه الكريم مذكِّراً أصحاب رسول الله ﷺ خاصةً والمؤمنين عامة، بتلك الواقعة التاريخية التي أراد فيها المشركون أن يبسطوا أيديهم بالسوء إلى المؤمنين فكفَّ تعالى أيديهم عنهم، وما ذاك إلا لطهارة أنفس المؤمنين يومئذ ونقاوتها بارتباطها بحبل الله محمد ﷺ الذي ثبَّت قلوبهم بربِّه العظيم ومن كان الله ورسوله معه فمن ضده؟!...

---

[١] سورة التكوير: الآية (٢٥).

[٢] سورة الشعراء: الآية (٢٢١-٢٢٢).

[٣] سورة الشعراء: الآية (٢١٠-٢١٢).

[٤] سورة الأنفال: الآية (٤٨).

{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}[1].

وقد أيد القرآن الكريم هذا المعنى في مواضع عدة من ذلك قوله تعالى:

{مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا}[2].

{ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ}[3].

لذا فبعياذك برب الفلق تخلص وتطهر نفسك من الدرن فلا تعود محتاجاً لمداواة، وبذا تُحفظ من تسلُّط كل ذي شر وأذى، وبعياذ رسول الله ﷺ الدائم بربه كانت نفسه دوماً في طهارة وصفاء، فما كانت بحاجة لمداواة فكانت محفوظة دوماً من كل شرٍ وأذى، وهكذا بعياذه برب الفلق وبعياذ الصحابة به ﷺ حُفظوا بمعيته من كل شر وأذى وكل ذل وهزيمة وكل مرض وبلاء.

وهكذا فبالعياذ برب الفلق وقاء ووقاية من شر ما خلق، وما أجمل قول رسول الله ﷺ في هذا المعنى إذ يقول:

«**اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي ومن شر كل دابةٍ أنت آخذ بناصيتها، إن ربي على صراطٍ مستقيم**»[4].

ألا فاحفظ هذا الدعاء وكرره بنفسك لنفسك تحفظ وتوقى إن كنت مستقيماً.

وأنت ترى من خلال هذا الدعاء الشريف الذي كان يدعو به رسول الله ﷺ، أن نفس الإنسان ذاته هي السبب في كل شر ينزل به فما الشر الذي يقع علينا من المخلوقات إلا وهو ناشئ ومنبعث عن الأعمال الخبيثة التي زيَّنها لنا الشيطان فقمنا بها وآذينا غيرنا من المخلوقات فلا يصيبنا شيء إلا ضمن الحق وبإذن الله، فإن نحن فعلنا ما نستحق عليه التأديب، أعاد علينا أذانا بواسطة دابة من الدواب، أي على يد أي مخلوق يدبُّ على الأرض وذلك ما تعنيه كلمة (**دابة أنت آخذ بناصيتها**) الواردة في هذا الحديث الشريف.

وما من شرٍّ يقع علينا إلاّ وقد سبقه شرٌّ صدر منا وأوقعناه نحن على غيرنا.

---

[1] سورة المائدة: الآية (١١).

[2] سورة النساء: الآية (١٤٧).

[3] سورة سبأ: الآية (١٧).

[4] كنز العمال ج /٢/٣٥٨٣.

{أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[1].

وقد أعلن القرآن الكريم هذه الحقيقة في مواضع عدة من آياته، فجاء كلام رسول الله ﷺ موضحاً لنا ذلك ومبيناً بقوله تعالى:

{مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا}[2].

{وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَنْ كَثِيرٍ}[3].

فما دامت نفسك طيبة طاهرة، وما دامت نقية من كل شر، سليمة من كل شائبة، فالله تعالى حافظك ومُؤيِّدك، ولْتطمئن قلباً ولتكن بحفظ الله تعالى ووقايته إياك من كل شر واثقاً.

فما العقرب والحية ولا الوحوش الضارية والسباع المفترسة، ولا الأعداء مهما مكروا وتكتَّلوا وأعدوا من عدة، حتى ولا جراثيم الأمراض السارية، وإن شئت فقل ما من دابةٍ أيّاً كان نوعها ومهما استشرى شرها بمستطيعة أن تمسَّك بأذى، أم كيف يمكن أن تبسط يدها إليك بالسوء أو يصيبك شرُّها وهي في قبضة الله تعالى ويده، وهو سبحانه آخذ بناصيتها؟. أم كيف يمكِّنها تعالى من أذاك وأنت طيب طاهر، وهو سبحانه على صراط مستقيم، لا يؤاخذ أحداً إلا بذنبه، ولا يسلِّط عليه دابة إلا بما تولَّد في نفسه من شر، فكان ذلك التسليط مذكِّراً له بشذوذه ورادعاً له عن انحرافه.

ذلك طرف مما نفهمه من كلام رسول الله ﷺ بهذا الخصوص، كما نفهم أيضاً أن عياذ المرء بالله تعالى وإقباله عليه، يكون سبباً في وقاية النفس وحمايتها من أن تتولد فيها نية سيئة أو أن ينبت فيها شر.

فإذا أنت عذت بالله دوماً ظلَّت نفسك طاهرة نقية وإذا ما حدثتك نفسك بشيء ووجدت فيها شراً فعذ بالله تعالى فوراً، وهنالك تطهر نفسك وتتزكى وبهذا تُحفظ من الشر وتوقى. هذا غيض من فيض مما تُوحي لنا به كلمة:

---

[1] سورة آل عمران: الآية (١٦٥).

[2] سورة النساء: الآية (٧٩).

[3] سورة الشورى: الآية (٣٠).

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ، مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾.

فسبحانك اللهم وبحمدك ما أعظم دلالتك وما أسعد المتمسِّك بكلامك والمعتصم بك، ومن يعتصم بالله فقد هُدي إلى صراط مستقيم.

هذا وقد أراد تعالى أن يفصِّل بعض التفصيل، فيما أشار إليه مطلع هذه السورة الكريمة فقال تعالى:

﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾

**والغاسق**: هو المظلم الشديد الظلمة، يقال: غسق الليل: أي اشتدت ظلمته،وغسق القمر: إذ أظلم وجهه لخسوف أو محاق.

والمراد **بالغاسق** هنا: الشيطان الذي اشتدت ظلمة نفسه بإعراضه وببعده عن خالقه وعن نوره تعالى أصبح مظلم النفس.

**ووقب** بمعنى: أقبل وجاء، **ووقب** أيضاً بمعنى: دخل في ظل الوقب، والوقب هو الكوة العظيمة فيها ظل، **والوقب**: النقرة في الجسد، والوقب هنا وعلى حسب ما تدل عليه القرينة، هو صدر الإنسان حيث يدخل الشيطان فيه موسوساً بالنفس محدِّثاً إياها بالشر، فإذا غفل الإنسان عن الله، أو أعرض وأضحى بعيداً عن خالقه، جاءه الغاسق أي الشيطان ووقب في صدره، وجعل يوسوس إليه ويزيِّن له ليخرج من نفسه ما تولَّد من حب العدوان على الآخرين، أو الإيذاء وغير ذلك من الأعمال الرديئة التي ينبت جرثومها في النفس بسبب غفلتها وبعدها عن الله وبهذا التخييل والتزيين يحصل العزم على تنفيذ الشهوة، فإذا استمرَّت النفس على إعراضها، وأصرَّت على شهواتها ففعلت ما زيَّنه لها الشيطان فهنالك يعود عليها فعلها الخبيث بسيِّء العذاب وأليم الوجع وذلك العذاب والضيق والألم هو الذي يتسبب عن الغاسق. فبالالتجاء إلى الله تخلص النفس من العذاب والشقاء المتولِّد عن الفعل الخبيث والناشئ عن تزيين الشيطان وتخييله. فالشرّ الواقع علينا من غيرنا من المخلوقات ناشئ ومنبعث عن الأعمال الخبيثة التي زيَّنها لنا الشيطان فقمنا بها وآذينا غيرنا من الخلق. وهكذا فالله تعالى إنما يبين لنا بهذه الآية الكريمة أنه لا يستطيع امرؤ وقب الشيطان في صدره أن يمد يده بالسوء لرسول الله ﷺ، لأنه ﷺ دوماً عائذ بالله، فإن كلمة:

﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ تقول:

إني أعوذ بالله من أن يؤذيني امرؤ بعيد عن الله وقب الشيطان في صدره، وأخذ يوسوس له ويحدثه بالشر والإيذاء، على أن هذه الآية الكريمة وإن كانت تعرِّفنا بحال رسول الله ﷺ، وتبيِّن لنا أنه عائذ برب الفلق من شر غاسق إذا وقب، فهي إنما تطلب إلينا من طرف خفي أن نعوذ نحن أيضاً به سبحانه، إقتداءاً وارتباطاً برسول الله ﷺ، ليكون هذا الحفظ وهذه الوقاية من شر غاسق إذا وقب في صدور المعرضين عن الله، فلا يجرؤ امرؤ منهم أن ينالنا بسوء، أو يمد يده لنا بأذى، فإذا ما رأيت امرءاً تلمع عيناه بالشر ويتلجلج الحقد في صدره، وعرفت في وجهه المكر والتعرض بالإيذاء، فما لك إلا أن تلتجئ إلى الله تعالى وتعوذ به وهنالك تطهر نفسك ويفر الشيطان الذي كان يغريه بأذاك، ويشعل في قلبه نار الحقد عليك، فتتخلص من شره وتحفظ من كيده وعليه تنتصر. ونتابع التأويل وننتقل إلى الآية:

## ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾

فنقول:

**النفاثات**: مأخوذة من النفث، وهو الرمي والإلقاء، يقال: نفث فلان البصاق من فيه، أي: رماه، ونفثت الحية السم، أي: ألقته في جسم الملدوغ، فالأفعى والحالة هذه نافثة، وإذا أردت المبالغة وتكرر صدور الفعل منها فهي نفاثة، وجمعها نفاثات، **والنفاثات** إذاً: الملقيات، والمراد من النفاثات في هذه الآية الكريمة:

أنْفس السحرة الذين اتخذوا السحر مهنة وحرفة فليس لهم من عمل إلا إلقاء التفرقة وبث الخصومات بين الناس، يفرقون بين المرء وزوجه، والأخ وأخيه، وبين الشريك وشريكه، والابن وأبيه.

**ولعلك تقول**: كيف يتم هذا التفريق، وكيف يحصل هذا الإيذاء؟. فأقول:

يأخذ الساحر شيئاً من شعر المسحور أو خيوطاً من ثيابه فيعقد فيها عقداً ينفث عليها بفيه، أي يخرج الريق من فمه مقروناً بشيء من الهواء، ويرمي به على العقدة التي عقدها وذلك هو ظاهر عمله.

**أما حقيقة الساحر**: فهي أن الساحر امرؤ كافر، بعيد عن الله، اتخذ الشيطان قريناً له ووسيطاً له في عمله، فهو عندما ينفث في العقدة بنفسه نحو المسحور يتبع الشيطان مسير هذا الشعاع ويقتفيه حتى يستدلَّ على المسحور ويصل إليه.

فيبدأ يخيّل له من الخيالات ويُلقي في صدره من الوساوس، ما يجعله مثلاً ينفر من زوجه التي أراد الساحر أن يفرق بينه وبينها، فتجد الشيطان مثلاً يلقي في نفس المسحور أن زوجه لا تحبه لما تأخرت في تحضير طعامه، وإذا رآها تتحدث مع والدتها سراً في أمر وابتسمت خيّل له كذباً وألقى في نفسه أنهما تتحدثان عنه، وأن ابتسامتها سخرية منه، إلى غير ذلك من التخيُّلات التي لا أصل لها وليست متطابقة مع الحقيقة، وما يزال هذا الشيطان متسلِّطاً على المسحور، وما يزال يخيل ويوسوس بخصوص زوجه حتى تقع الخصومة والشحناء بين الزوجين ويقع الفراق، وبذلك يكون الساحر قد وصل إلى بغيته متخذاً الشيطان وسيطاً له في عمله وأذاه.

وهكذا فالساحر والشيطان شريكان في هذه الأذيَّة، الساحر يسوق الشيطان ويوجهه نحو المسحور، والشيطان يوسوس ويُلقي بالخواطر ويخيِّل التخيلات الباطلة حتى يصلا إلى بغيتهما.

فنفث الساحر يكون على صورتين:

١- فإما أن يكون مرادهُ من نفثه **إيجابياً**، أي التقريب والجمع بين شخص وشخص، ويكون همُّه منصرفاً إلى عقد العقدة، وإنشاء الرابطة.

٢- وإما أن يكون مرادهُ من نفثه **سلبياً**، وذلك بالتفريق وإلقاء العداوة والبغضاء بين فردٍ وفرد، وتكون بغيته في هذه الحالة هادفةً إلى حلِّ العقدة وإفساد العلاقة القائمة {..فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ}[1].

ولكن كيف ينبعث الأذى من الساحر إلى المسحور، وكيف تستطيع النفَّاثات التأثير على أحد الأشخاص؟.

١- **فمن حيث الظاهر**: الساحر في نفثه يسوق الشيطان نحو المسحور ويستخدمه في التخييل إليه بما يرغب من الخيالات.

[1] سورة البقرة: الآية (١٠٢).

٢- **ومن حيث الباطن**: الشيطان يستخدم الساحر فيتوصل بواسطته إلى المسحور، ويخيل إليه ما يشاء مما فيه إيقاع الأذى وإنزال الضرر.

ولكن هل يستطيع الساحر والشيطان أن يجعلا أي شخص هدفاً وموضعاً لأذاهما، يتلاعبان به كما يريدان؟...

**وفي الجواب عن هذا نقول:**

إذا نحن رجعنا إلى السورة الكريمة التي نحن بصددها وهي قوله تعالى:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ، مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ، وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ، وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ .

نجد أن رسول الله ﷺ بعياذه برب الفلق إنما حُفظ ووُقي من شر النفاثات في العقد، فلا سبيل لساحر عليه ولا يجرؤ شيطان أن يدنو منه فيخيل إليه، وكيف يستطيع ساحر أن يتعرض لرسول الله ﷺ بالأذى؟..

أم كيف يجرؤ شيطان أن يدنو منه ﷺ؟. ولو دنا لاحترق لفوره.

هذا ما تريد أن تعرفنا به هذه السورة وترشدنا إليه، لنعلم أن المؤمن الذي يعوذ بالله مقتدياً برسول الله ﷺ، لا يستطيع ساحر أن يتعرض له بسوء، ولا يجرؤ شيطان أن يخيِّل إليه.

أما الكافر، البعيد عن الله فهو عرضة لكل شر وأذى، إذ لا سلاح بيده ولا ملجأ له يعوذ به.

ولعلك تقول كيف يمكِّن الله تعالى الساحر والشيطان من التعاون على إيذاء المسحور، والخلق كلهم عباد الله تعالى، والكون كله بيده ولا حول ولا قوة لأحد إلا بالله ومن بعد إذنه؟.

**وفي الجواب عن هذا نقول:**

ما يمكِّن الله تعالى الساحر والشيطان، من التعاون على امرئٍ والتسلُّط عليه إلا بما بدر منه وسبق من أفعال رديئة، استحق عليها أن يداوى بهذا الدواء، فلعله يتوب ويؤوب إلى رشده، ولولا ظلمه وإيقاعه الأذى بغيره لما مكَّن الله تعالى منه هذين الشريكين الخبيثين، وقد أشارت الآية الكريمة في سورة البقرة إلى هذه الناحية، فقال تعالى:

{..فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ}[1].

وهكذا فبعياذ المؤمن بربه والتجائه الدائم إليه حِفْظٌ من كل شر ووقاية من شر النفاثات في العقد. فما أثبت قلب المؤمن العائذ بربه، وما أمضى سلاحه، إنه لا يبالي بساحر، ولا يخشى من شيطان، ولا تفل من عزمه مكيدة إنسان. فالالتجاء إلى ربِّ الفلق إذن يخلِّصنا من شرِّ النفاثات في العقد.

وقد أراد تعالى أن يعرفنا أيضاً في هذه السورة الكريمة، بأن العائذ به سبحانه محفوظ أيضاً من أن تصيبه عين الحاسد بسوء، ولذلك قال تعالى:

﴿ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ . . ﴾:

**والحاسد:** هو امرؤ معرض عن الله يرى النعمة على غيره فيستهويها ويستحبها ويتمنى زوالها عنه ومجيئها إليه.

﴿ . . إِذَا حَسَدَ ﴾:

أي إذا قام بالحسد، فإذا صدر منه هذا الاستهواء والاستحباب لتلك النعمة وهو في حال الغفلة عن الله كان ذلك سبباً في وقوع الأذى على المحسود، وذلك الأذى هو ما يسمِّيه الناس بالإصابة بالعين.

أما تفصيل **الحسد** وبيان الكيفية التي يقع بها الأذى والإصابة بالعين من الحاسد على المحسود، فنوضحها بما يلي:

ما كل الناس بمالك جميع ما يحب ويريد من صحة أو مال وولد، إذ كثيراً ما نجد أناساً قد حُرموا نعمة من النعم لحكمة أرادها الله تعالى، فكان الحرمان بحقهم خيراً ورحمة، وهذا الحرمان على أنواع:

---

[1] سورة البقرة: الآية (١٠٢).

فمن الناس من حُرم الذرية والأولاد، فهو العمر كله لهفان على أن يكون له ولو ولد واحد، ذكراً كان أو أنثى، ومنهم من رزق ذكوراً فهو يرجو ويتمنى أن تكون له أنثى، ومنهم من حُرم الذكور ولم يوهب إلا إناثاً، وهنالك من أعطي رزقاً واسعاً ومالاً وافراً ولم يؤت صحة، وآخر أوتي صحة وقوة وليس له مال ومتاع كما تحب نفسه وتهوى، وهكذا فالله تعالى حكيم عليم يعطي ويمنع وما منعه إلا علاج ودواء، وهو في الحقيقة عين العطاء، ولو انكشف الغطاء ورأى الإنسان الحقيقة لما اختار إلا ما اختاره الله تعالى له، بل يشكر الله تعالى سبحانه على فضله بهذا المنع الذي منعه إياه، ولرأى الرحمة الإلّهية تحوطه وتحوط سائر الناس لا بل جميع المخلوقات.

أما وقد مهدنا لك بهذه الكلمة، فلننتقل إلى بيان الكيفية التي تقع بها عين الحاسد بأذاها على المحسود، ولنوضِّح لك الطريقة التي يجب تطبيقها وتظل دوماً في حفظ من ذلك الأذى، ونقدِّم المثال الآتي فنقول:

هب أن امرؤاً عليلاً لازمه المرض حيناً، فانحل جسمه وأضناه، وما زال به حتى حلَّ قواه وأعياه، فأضحى لا يقوى على السير ولا يستطيع مغادرة السرير، وفيما هو على هذا الحال من السقم والعياء والجهد والبلاء، إذا به يرى آخر يموج جسمه في صحة وعافية، ويفيض وجهه نشاطاً وحيوية، فيستهوي هذا المريض ما يراه على صاحبه من نعمةٍ، ويستحب تلك الصحة ويستغرق بنظرته تلك استغراقاً كلياً، يسري معه شعاع من نفسه إلى المحسود، وللنفس سيّالتها، وللنفس أشعتها وسريانها، يقع هذا الشعاع الصادر عن نفس الحاسد على المحسود، فيصطك به ويلامسه وينفذ فيه، وفيما الحاسد في هذا الحال من الاستغراق المقرون بالغفلة عن الله، وفيما أشعة نفسه متصلة بالمحسود نافذة فيه، ينتهز الشيطان الفرصة لأن الشيطان أعمى إنما يشمُّ الخبث شمّاً ولولا شعاع نفس المعرض عن الله لما استطاع النفوذ إلى المحسود، ويتخذ من شعاع نفس الحاسد مركباً ومحملاً فيسري محمولاً في هذا الشعاع، كما تسري القوة الكهربائية محمولة في السلك المعدني، وإذا بها قد حملها السلك وقد هزت من لامسه السلك هزاً أو جعلته يصعق ميتاً، ولولا السلك لما استطاعت السيالة الكهربائية إليه وصولاً ولا مسَّته بأذى.

إن هذا المثال الذي قدمناه الآن ينطبق على الشيطان في سريانه هذا تمام الانطباق، فما أن يصل الشيطان إلى المحسود ويصطك به، حتى يصيبه بأذى فيهمزه همزة يقع بسببها صريعاً ميتاً أو مريضاً يشكو ألماً ووجعاً في عضو من أعضائه، وقد أشار تعالى في القرآن الكريم إلى ذلك بقوله:

{وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ}[1].

ولولا الحاسد لما استطاع الشيطان إلى المحسود وصولاً ولا أصابه بأذى، على أن المحسود ولو كان بذلك الحين مقبلاً على الله تعالى، عائذاً به سبحانه وبرسوله الكريم لما استطاع الشيطان إيذائه ولما تمكَّن من الإضرار به، ذلك لأن الإقبال على الله تعالى، والعياذ به وبرسوله الكريم يجعل الإنسان مُحاطاً من جميع جهاته بهالة من النور الإلَهي، وبذا يضحي في حرزٍ منيع ويكون النور الإلَهي سوراً خفياً يحول بينه وبين الشيطان، فإذا أراد اختراقه هلك واحترق، وهكذا فالله تعالى إنما أمر رسوله الكريم أن يبين لنا في سورة الفلق، أنه ﷺ عائذ بربه من أن تصيبه عين الحاسد بأذى، لنعوذ بالله سبحانه بمعيّة رسول الله ﷺ، فيكون لنا هذا الحفظ وهذه الوقاية، والفضل والمنَّة لله على ما أرشد وبيَّن.

وإذاً فما عليك إذا أردت أن تُحفظ وتُوقى، إلا أن تعوذ به سبحانه دوماً، وما عليك إذا ما كنت ناسياً ورأيت من حاسد استهواءً، وخشيت من نظرته أذى وشراً، إلا أن تتذكر وتذكر الله وتعوذ به فوراً. هذا وكما يحفظك الله تعالى إذا عذت به من شر الحاسد، فكذلك يحفظ سبحانه كل من كانت نفسه مرتبطة بك، أو من كانت نفسك مرتبطة به ومتجهة إليه، فأهلك وأولادك حتى الزرع والدواب التابعة لك، وكذلك جميع من تربطهم بك رابطة المحبة، يحفظون بوجهتك إلى الله تعالى وعياذك به من الإصابة بالعين الحاسدة، ذلك لأن محبة نفس لنفس معناه: سريان أشعة نفس المحب لها إلى من يحبه والتقاء أشعة النفسين، وبما أن نفسك تحيط أهلك وجميع من تحبهم بهالة من أشعتها فهي دوماً على اتصال بهم دون انقطاع، وحيث إن نفسك محصنة بنور الله تعالى، لذلك لا يستطيع الشيطان دنواً منهم أيضاً ولا إيذاء أي منهم.

---

[1] سورة المؤمنون: الآية (٩٧).

ولذا كان رسول الله ﷺ يحصِّن سبطيه الحسن والحسين رضي الله عنهما فيقول:

«**أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عينٍ لامَّة**»[1].

وقد قيل له ﷺ، إن امرءاً أصاب آخر بالعين، أي نظر إليه نظرة استحسان مقرونة بالغفلة عن الله، فأصاب المحسود منها ما أصابه من أذى، فغضب ﷺ ولامَ الناظر على إيذائه أخاه وقال له:

«**هلاَّ باركت**»، يريد بذلك ﷺ من الإنسان، إذا رأى نعمة على غيره واستحسنها أن يذكر اسم الله تعالى في الحال، وما ذاك إلا لتندفع الغفلة عن الناظر، فلا تعود نفسه مركباً ومحملاً للشيطان، ولا يبقى للشيطان على المحسود من سبيل.

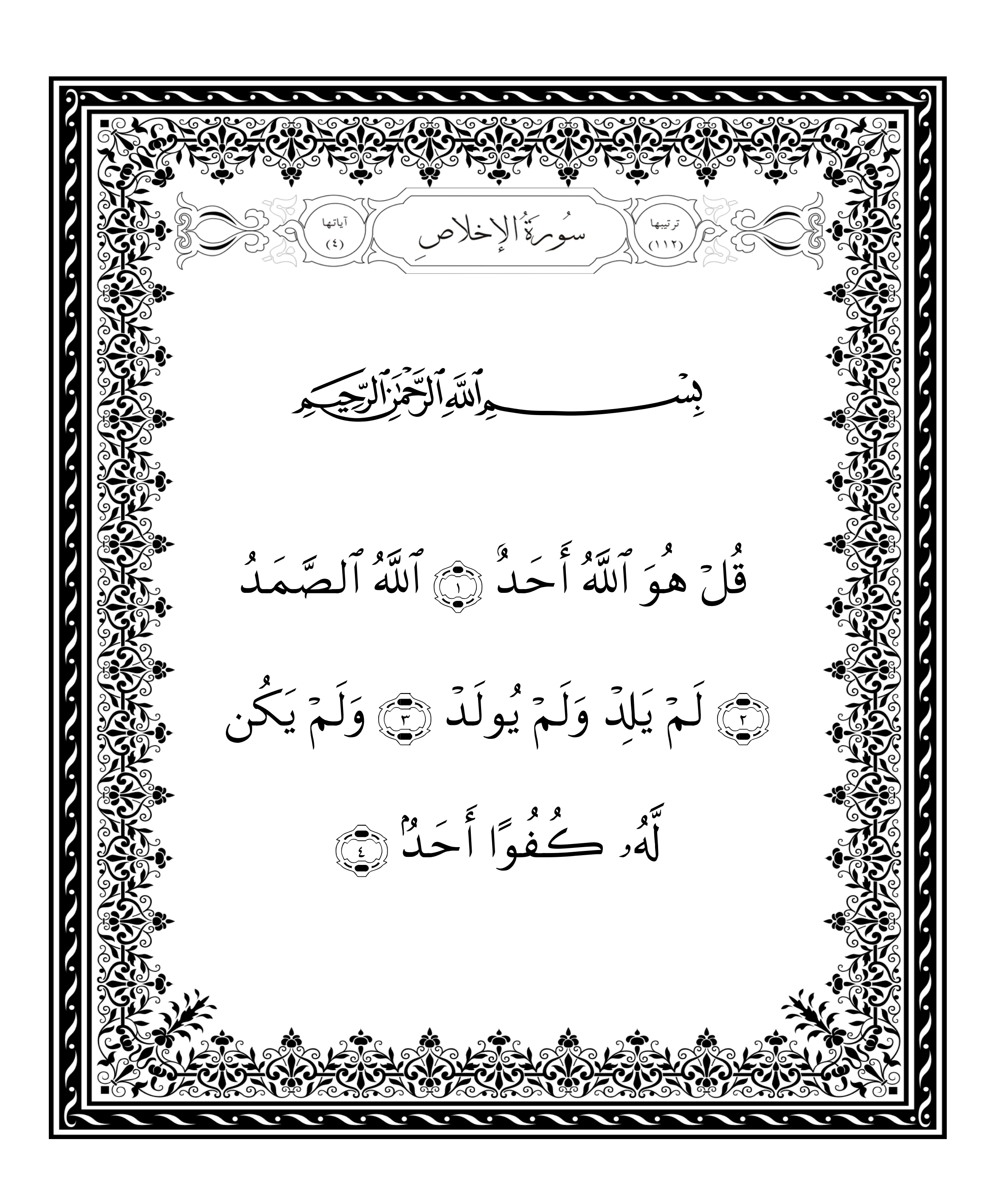
**والآن نجمع لك ما فصَّلناه من تأويل هذه السورة الكريمة فنقول:**

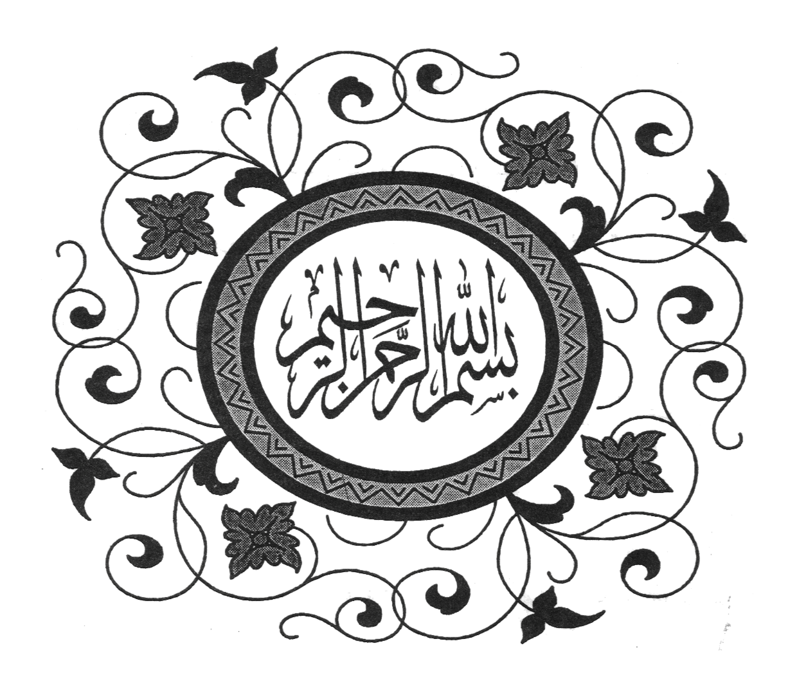
**العياذ برب الفلق** يطهِّر النفس ويحفظها من سائر الشرور، فمن أقبل بنفسه على الله تعالى، عائذاً به حفظه الله تعالى من كل شر ووقاه، ولله ورسوله المنَّة والفضل والله غني عن العالمين.

والحمد لله عظيم الشان، قوي البرهان، شديد السلطان وما شاء بكمال الكمال كان

[1] كنز العمال ج / ٢ رقم ٣٩٧٢.


سُورَةُ الإِخْلَاصِ


سُورَةُ الإخلاص
ترتيبها (١١٢)
آياتها (٤)
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ
﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن
لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾




أتريد أن تعرف أيها الإنسان من هو **ربّ الناس، ملك الناس، إلّه الناس،** وهل تريد أن تعرف من هو **رب الفلق** الذي شملت تربيته الكون كلَّه وعمَّ بفضله وإمداده الخلائق كلها، فما من مخلوق إلا وهو مشمول بعنايته قائم به مفتقر إلى دوام إمداده.

أتريد أن تعرف من هو هذا الرب الذي به عاذ رسول الله ﷺ فاندفعت عنه الشرور، فما الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس، ولا الغاسق إذا وقب، ولا النفاثات في العقد، ولا الحاسد إذا حسد، ولا أي مخلوق من المخلوقات حتى ولا أهل الأرض جميعاً، ما من أحد منهم بمستطيع أن يمد لهذا الرسول الكريم بسبب عياذه بهذا الرب العظيم يداً بأذى.

أتريد أن تعرف من هو هذا الرب الذي أنزل على رسوله **سورة الفلق** ومن قبلها **سورة الناس،** يرسم لك بهما طريق السعادة ويوقيك من المهالك والشرور التي قد تنتابك في هذه الحياة، والتي انتابت المعرضين فكانت حياتهم كلها تعاسة وبؤساً وشقاء.

أتريد أن تعرف هذا الرب الحريص على هدايتك الرؤوف الرحيم بك، الذي لا يريد لك إلا السعادة والذي ما أخرجك إلى هذا الوجود إلا ليمنحك من فضله ويحسن إليك ويجعلك في هذه الحياة في سعادة يتلوها رَوْح وريحان وجنة نعيم.

إذا كنت تريد أن تعرف هذا الرب العظيم الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، ليصل بك إلى أسمى الكمالات الإنسانية ويجعلك بعد هذه الحياة الدنيا في نعيم مقيم وسعادة أبدية، فاستمع إلى قوله تعالى يعرِّفك بذاته العليّة إذ يقول تعالى في كتابه الكريم مخاطباً رسوله الكريم:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ .

أي عرِّف عبادي مبيِّناً أن هذا الرب رب الناس، ملك الناس، إلّه الناس الذي به يجب أن يعوذوا من شر الوسواس الخناس. وأن هذا الرب رب الفلق الذي به يجب أن يعوذوا من الشرور كلها هو الله، إنه هو الله أحد.

كلمة (**الله**): هي اسم الذات يدلُّك لفظها على المسمّى جلَّ جلاله، ويبيِّن لكَ أنك إن عرفته توّلَّهت به عشقاً، وطارت نفسك لما تشهده من إكرامه وفضله شغفاً وحبّاً، فرب الناس، وربُّ الفلق هو الله.

ومعنى كلمة لفظ الجلالة (**الله**) مشتقة من كلمتي (**أَلِهَ**) و (**وَلِهَ**) أي: لو شاهدت ما آل إلى الله تعالى من مزيد الفضل والإكرام وعظيم الرحمة والمحبة والحنان عليك أيها الإنسان ولو عمَّقت بالتفكير بآلاء الله ونِعَمه عليك لتولَّهت به حبّاً وهياماً ولطارت نفسك عارجةً في بحور الجلال والجمال والعظمة الإلّهية ولحلَّقتَ بنفسك التجاءً واحتماءً وحبّاً بذي الجلال والإكرام مقبلاً عليه لا ترى إلاَّه ولا تنطق بسواه ولا تنشغل فكراً وقلباً إلاّ بالحبيب الأول.

إذاً: **الله** هو الذي تتولَّه الأنفس به إذا هي أقبلت عليه، ويحار العقل في شهود كماله إذا هو نظر إليه فهو تعالى سبحانه العليم الحكيم، وهو سبحانه المتَّصف بالكمال الذي لا يتناهى، والذي تدلُّك عليه اسماؤه الحسنى.

وكلمة (**الله**) هي اسم الذات العلية وهي الاسم الجامع لسائر الأسماء الإلّهية، وإذا كانت كلمة (**ربّ**) تشير إلى اسم من أسماء الله تعالى وهو المربي الذي يمد كما رأينا من قبل كل المخلوقات بما تتوقف عليه حياتهم من احتياجات.

وإذا كانت كلمة (**ملك**) قد عرَّفتنا باسم آخر من أسمائه تعالى مبيِّنة أنه سبحانه هو القابض الذي في قبضته جميع الموجودات. وإذا كانت كلمة (**إلّه**) تشير إلى اسم ثالث من أسماء الحضرة الإلّهية مبيِّنة أن هذا المربي العظيم هو الذي تؤول إليه أمور الناس لا بل أمور سائر

المخلوقات فهو وحده المتصرِّف بشؤونها المدبِّر أمورها ولا إلَه إلا هو وما لأحد من تصرّف سواه.

**أقول**: إذا كانت هذه الأسماء الإلَهية التي أوردناها قد عرّفتنا بما عرفتنا من معانٍ فإن كلمة (**الله**) إنما هي جامعة لهذه الأسماء الثلاثة معاً وأنها تشتمل على سائر الأسماء الإلَهية.

وهكذا فكلمة (**الله**) هي الاسم الأعظم الذي يشتمل على الأسماء الحسنى والجامع لها كلِّها فإذا ذكرت اسم الله تعالى فقد ذكرت الخالق الرحمن الرحيم والرب الحكيم السميع البصير. وإذا ذكرت اسم الله تعالى فقد ذكرت العلي العظيم والقويَّ القدير والبارئ المصوِّر، والسلام المؤمن المهيمن، وإن شئت فقل:

إذا ذكرت اسم الله تعالى فقد ذكرت اسم الذات العليّة اسم الله الأعظم الذي يشتمل على الأسماء الإلَهية الحسنى والدالة على صفات الكمال التي تبلغ تسعة وتسعين اسماً والتي أشار إليها ﷺ بقوله:

«**إن لله عزَّ وجلَّ تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنَّة**»[1].

وليس المراد بكلمة (**من أحصاها دخل الجنة**)، أي من حفظها معدّداً ألفاظها واحداً فواحداً حتى يذكر تسعة وتسعين اسماً، بل إنما أراد ﷺ بكلمة من (**أحصاها**)، أي من صار له شيء من العلم بكل واحدٍ منها وشهد طرفاً مما يشير إليه كل اسم من أسماء الله تعالى.

فإذا أنت شهدت من رحمته تعالى بسائر الخلق وعقلت طرفاً من هذه الرحمة بما رأيته من معاملته سبحانه لعباده في الدنيا وأدركت شيئاً من رحمته بخلقه في الآخرة فقد آمنت برحمة الله وصار لك علم باسمه تعالى الرحمن، وإذا أنت شهدت طرفاً من عدالة الله في خلقه وعُرِضتْ لك وقائع عقلت نفسك معها أن العدالة الإلَهية لا بد وأن تعطي كل ذي حق حقه فقد آمنت بعدالة الله وصار لك علم باسمه تعالى **العادل**.

وإذا أنت أَجَلْتَ الطرف فيما يقع عليه نظرك من مخلوقات، وشهدت الحكمة القائمة في تنظيم كل مخلوق وتناسُب أعضائه مع وظيفته التي خُلق من أجلها ثم تابعت التفكير في الكون

---

[1] رواه البخاري ومسلم.

وأدركت أن كل شيء قد وُضع في موضعه المناسب وبمقداره المطلوب دون انحراف أو زيادة ونقصان فأنت والحالة هذه قد آمنت بحكمة الله وصار لك علم باسمه تعالى **الحكيم**.

ولا أريد أن أفصِّل لك في كل اسم من هذه الأسماء الإلٰهية لأن الشرح والبيان ليس كالشهود والعيان وإنك لا تستطيع أن تشاهد أو تعقل طرفاً من هذه الأسماء الإلٰهية إلا من خلال تفكيرك بهذا الكون وما فيه من تنظيم وترتيب وحكمة وإن شئت فقل لا تستطيع أن تشاهد الأسماء الإلٰهية جميعها ما لم تنظر في نفسك منذ بدايتها، وتتابع النظر في الأطوار التي مررت بها منذ أن كنت نطفة حتى أصبحت إنساناً سوياً.

وإن أنت أردت أن تشهد طرفاً من قدرة القدير وحكمة الحكيم وعلم هذا الرب العليم والإلٰه الرؤوف الرحيم فما لك من سبيل إلا أن تنظر في نفسك وتتابع النظر مفكِّراً في كل عضو من أعضائك وهنالك تشاهد التربية والمُلْك وتتجلَّى لك القدرة الإلٰهية في تصرُّفها وتدبيرها شؤون الخلق وتتدرج من ذلك إلى رؤية العلم والحكمة وتؤمن بأن الله تعالى واسع عليم وعادل رحيم وأنه سبحانه حكيم خبير وسميع بصير لا يعزب عنه من مثقال ذرَّة في السموات والأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين.

وما تزال تتدرج في رؤية الأسماء الإلٰهية اسماً بعد اسم حتى تشهد طرفاً من أسمائه تعالى، **الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبَّار، المتكبّر**، وما تزال ترقى متدرِّجاً في هذا الشهود حتى تصل إلى رؤية سائر الأسماء الإلٰهية رؤية متناسبة مع حالك ومع ما أنت فيه من إيمان، فإذا أنت شهدت وعقلت طرفاً من الأسماء الإلٰهية كلها فأنت مؤمن ولك البشرى بالجنة كما أخبر بذلك السيد الصادق الأمين ﷺ.

**أمَّا ما دمت تقول**: لِمَ هذا ولِمَ ذاك، وما دمت ترى أن فلاناً ظلمك وفلاناً أذاك وما دمت لا ترى تلك اليد الإلٰهية التي لا يخرج عن تصرُّفها مخلوق ولا يستطيع أن يتخلَّف منها إنسان، وإذا كنت لا ترى المرض رحمة والفقر فضلاً ومنَّة والهموم والغموم علاجاً وأدوية وخيراً ونعمة، وإن شئت فقل إذا أنت لم تعرف أن الكون كله تتصرَّف به يد واحدة جمعت في تصرُّفاتها به وفي كل حادثة من حوادثه علماً وحكمة وعدالة ورأفة وحناناً ورحمة وإحساناً ومنَّةً فما وصلت بعد إلى الإيمان التام بحديث رسول الله ﷺ وما أحصيت بعد جميع أسماء الله تعالى الحسنى، ولْتجدَّ

في الطلب وما بعد الوصول إلا الطمأنينة والسكينة، وما بعد هذا الإيمان إلا الأمن والراحة والأمان وإنك والحالة هذه إذا أنت آمنت ذلك الإيمان الذي أشرنا إليه وبيَّناه لتشعر في نفسك إذا ذكرت اسم الله أنك قد ذكرت خالقاً عظيماً وربّاً عادلاً حكيماً وإلَهاً مسيِّراً عليماً ومولىً رؤوفاً رحيماً، وهذا بعض ما نفهمه من كلمة (**الله**).

ونتابع التأويل ونشرح لك ما نفهمه من كلمة (**أَحَدٌ**) الواردة في قوله تعالى:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾:

فنقول:

إذا كان لفظ الجلالة وأعني به كلمة (**الله**) يشتمل كما ذكرنا من قبل على سائر الأسماء الإلَهية فإن كلمة (**أَحَدٌ**) تشير إلى أنه سبحانه "**الواحد الذي لا يكون متعدداً**" وهو تعالى المتفرِّد في كل اسم من هذه الأسماء، فهو سبحانه أحد في ربوبيته وملكه، أحد في خلقه وألوهيته، أحد في علمه وحكمته، أحد في رحمته ورأفته، أحد في عدالته وقوته وقدرته، أحد في ذاته، وفي كل اسم من أسمائه الحسنى ومتفرِّد فيه.

هذا وزيادة في الإيضاح وبياناً لما ذكرناه نضرب لك المثل الآتي نبيِّن فيه أن الله تعالى أحد في قوته فنقول:

قد تبلغ قوة الواحد منَّا درجة تمكِّنه من حمل كرة من حجر زنتها خمسون كيلو غرام على التقريب لكنه يعجز ويعجز ألف رجل مهما أوتوا من القوة عن حمل صخرة تجاوز في حجمها غرفة كبيرة من الغرف ويعجز الناس جميعاً ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً عن حمل كتلة من الأرض تساوي جبلاً من الجبال الكبيرة، وهكذا فلبني الإنسان لا بل لسائر المخلوقات طاقة وقوة محدودة لا تتجاوز حداً معيَّناً، فإذا أنت كلَّفت هذا الإنسان بأكثر مما يطيقه باء بالعجز والفشل.

ودع الإنسان الآن وتعال ننظر إلى الكرة الأرضية هذه الكرة بما حوت من جبال وبحار، بما في باطنها من معادن ذائبة وصخور وأحجار بما اشتملت عليه من عيون وآبار وأنهار، بما حملت على ظهرها من إنسان وحيوان، ونبات وأشجار، تعال ننظر إلى هذه الكرة وقد تجاوزت زنتها تقريباً كما يقول علماء الفلك مليار مليار مكررة خمسة آلاف مرة من الأطنان:

**(٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٥٠٠٠ طن).**

تعال نتصور هذه الكرة العظيمة ونحن محمولون على ظهرها تقف بنا في هذا الفضاء فلا عمد تقيها ولا سند يسندها، بل إنما تقف بقوة الله تعالى وحده وليس لأحد من الخلق معه فيها من شرك وماله منهم من ظهير. نعم إنها تقف في هذا الفضاء دائرة حول نفسها بين ليل ونهار وهي تجري في فلكها دون أدنى انحراف، وعلى الرغم من ثقالتها لا تتأخر في جريها لحظة ولا تخرج عن طريقها أنملة، فما أعظم هذه اليد التي تمسكها وهذه القوة التي تجريها بهذه الدقة العجيبة وهذه السيطرة المطلقة وهذا النظام!.

ما أخالك إذا فكَّرت هذا التفكير ونظرت هذا النظر إلا مدركاً مما تشير إليه كلمة **(أَحَدٌ)** بالنسبة لاسمه تعالى القوي، وما أنت بمدرك طرفاً من معاني الأسماء الإلَهية إلا من خلال ما تراه في الكون من آيات وبعد النظر فيما فيه من مخلوقات.

على أنك إذا ذهبت تتعمَّق في التفكير زدت في الإدراك لهذه المعاني وكلَّما تعمَّقت أكثر وأكثر زدت في التقدير، فإذا أنت تابعت النظر وجاوزت الأرض إلى قمرها الدائر حولها في هذا الفضاء ثم نظرت إلى الشمس ثم انتقلت إلى ملايين النجوم التي تملأ السماء والتي تجاوز زنة بعضها مليون مرة من وزن الشمس وعلمت أنها على عظيم وزنها تقف محمولة في الفضاء بقوة الله تعالى وحده فلا بد أنك تزداد تعظيماً لله تعالى وتقديراً وتعلم أنه سبحانه أحد في قوته.

وهكذا فمن الكون ذاته تستطيع أن تدرك طرفاً من قدرة الله تعالى وتقدِّر ربك وتعظِّمه، فإذا ما علمت أن كل ما في الكون من قوة مهما تعددت مظاهرها ومهما اختلف أنواعها ومصادرها إن هي إلا أثر منبعث من قوة الله تعالى وذرَّة من بحر من قوة الله القوي.

وإذا ما علمت أن الكون كله قائم بالله تعالى وأن جميع ما فيه من مخلوقات حتى الشمس بما في باطنها من حرارة تتجاوز المليوني درجة على حسب رأي العلماء، والنجوم بما فيها من قوة جذب ودفع ومغناطيسية، إذا علمت أن ذلك كله يستمد قوته من الله تعالى فهنالك تستطيع أن تدرك أن الله تعالى أحد في قوته فهو سبحانه القوي وما من قوي سواه.

أما وقد وضحنا لك ما تشير إليه كلمة **(أَحَدٌ)** بالنسبة لاسمه تعالى القوي فمن اليسير عليك أن تتوسع أنت في بقية الأسماء فتعلم من خلال اسمه تعالى القوي اسمه العظيم، والحكيم، واسمه

تعالى الواسع والقدير والعليم والخبير والرؤوف الرحيم، واسمه تعالى العادل وغير ذلك من الأسماء الإلهية الحسنى.

وتعلم أنه تعالى أحد في كل اسم من هذه الأسماء فلا يوصف بكلمة أحد إلا الله تعالى لخلوص هذا الاسم الشريف المتعالي له.

والحقيقة أن الوصول للحضرة الإلهية لا يتم للمنقطعين عن الشهود الإلهي إلاَّ بالاتصال بواسطة من لم ينقطع عن حضرة الله طرفة عين منذ عالم الأزل ألا وهو رسول الله الصادق الوعد الأمين الباقي بالله البقاء السرمدي والشاخص ببصيرته المتسامية لوجه الله الكريم فهو الذي لم ينفك ولا ينفك عن حضرة الله في شهود أبدي تتراءى فيه جنات الله العلى وهو حبل الله المتين من تمسَّك به وسلّمه قلبه عرج به للسعادة والنعيم والاستنارة الدائمة والشهود الأعظم لوجه الله الكريم، وسورة الإخلاص هي حقاً لمن صدق مع الله وأخلص لرسوله الرحيم وتلك وأيم الحق غاية وأقصى المنى من خلق الإنسان، للسعادة خُلقنا جميعاً إن عذنا بالله ربه ﷺ **(الإخلاص لرسول الله مرشدنا والصدق مع حضرة الله ربنا)**. وذلك سبب تسمية هذه السورة **بسورة الإخلاص**.

وننتقل الآن إلى الآية الثانية من هذه السورة الكريمة وهي قوله تعالى:

﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾

فنقول:

إذا كانت الآية الأولى من هذه السورة الكريمة تعرِّفنا بأن الله تعالى أحد، أي متفرِّد في ذاته وفي كل اسم من أسمائه، فهو القوي وما من قوي سواه وكل قوة اتَّصف بها مخلوق إن هي إلا أثر من آثار تلك القوة الإلهية التي أمدَّه بها الله تعالى وما من رحمة خالطت قلب مخلوق إلا وهي مستمدة من الله فإن كلمة ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾، إنما تريد أن تعرِّفنا بمعنى جديد وهو أنه سبحانه بالإضافة إلى تفرُّده في ذاته وأسمائه، وهو الدائم الرفيع الذي لا يستمد من أحد، ولا يحتاج إلى غيره، فإذا كان المخلوق يحتاج في وجوده إلى موجدٍ يوجده ويربِّيه، وإلى محيٍ يمدُّه بالحياة ويحفظها عليه، وفي قوته إلى قوي يمنحه القوة ويبعثها فيه، حتى إذا ما انقطع عن هذا الإمداد لحظة انعدمت قوَّته، وانقطعت حياته، وانمحى وجوده، وزالت عنه كل موهبة، وافتقد كلَّ خلق

أو صفة كانت لديه، فالله تعالى لا يستمدُّ من أحدٍ، ولا يحتاج إلى أحد، بل هو الصَّمدُ في ذاته، وفي كل صفة من صفاته.

وحياته تعالى ذاتيةٌ، وهو **الصَّمَدُ** في حياته، أي: أن حياته سبحانه لم تأتِ من سواه، بل هو مصدرُ الحياة، وهو الذي يبعث الحياة في الأكوان كلّها، وفي كل ذرة من ذرات هذا الكون وغيره من الأكوان، وكل صفة من صفاته تعالى ذاتية لم يستمدها من غيره، بل هو **صَمَدٌ** في ذاته وصفاته. **صَمَدٌ** في ذاته وفي كل اسم من أسمائه فلا تتغير أسماؤه ولا تتبدل ولا يعتريها نقصان أو زوال.

وبشيء من التفصيل وتعريفاً وتوضيحاً لمعنى كلمة (**الصَّمَدُ**) نقول:

**الصمد**: هو الذي يمدُّ ولا يستمدّ. **والصامد** من كل شيء: الصلب المتين لا ضعف فيه ولا خَوَرْ، يقال: صمدت الصخرة أي ثبتت راسخة فإذا هي لا تتزعزع ولا تتزلزل تجاه المؤثرات، وصمد القائد في وجه العدو، أي: ثبت في المعركة فإذا هو كالجبل الراسخ لا ترهبه قوة ولا تزلزله كثرة عدد أو عدة ولا تفل من عزمه مكيدة أو حيلة، والصمد من القوم هو السيد الذي يعتمد عليه الناس في أمورهم ويلجؤون إليه فيما ينزل بهم فلا يبرمون أمراً دون مشورته ولا يصدرون إلا عن رأيه اعتماداً منهم على راسخ علمه وثاقب رأيه وعظيم قوته وقدره.

أما وقد مهَّدنا للمعنى بما أوردناه من شرح وأمثلة فنقول:

إذا كان أناس يصفون بكلمة (**الصَّمَدُ**) شخصاً من الأشخاص بناءً على ما اعتمدوه فيه من علم وقوة وعظيم قدرة على مجابهة الخطوب والصمد أمام مصاعب الحياة، فإن هذا الوصف وهذه التسمية لا تخلو من مبالغة بل هي في الحقيقة غلو ومغالاة، والصمد هو اسم من أسماء الله وليس يجوز أن يُسمَّى بهذا الاسم أحد سواه. نعم إن الله تعالى قد يمد بشراً من البشر بطرف من القوة والعزم فإذا بك تراه أقوى من كل إنسان ولكن هذه القوة العظيمة وهذا العزم الشديد الذي أمدَّ الله تعالى به هذا الإنسان لا يسوغ لنا أن نقول أن هذا الرجل صمد في قوته لأن الصمد معناه كما رأينا المتين الذي لا يطرأ عليه ضعف أو خور ونقصان، وهذا الرجل قد يصيبه مرض من الأمراض أو قد يتعرض لمؤثِّر من المؤثِّرات فإذا به وقد انحلَّت قواه وأضحى لا يستطيع حمل نفسه، فضلاً عن مجابهة الخطوب ومقاومة المؤثرات، ذلك لأن القوة التي أمد الله

تعالى بها هذا الإنسان إنما هي وديعة أودعها الله تعالى فيه، فلمَّا شاء استردها أو طرفاً منها وهنالك يبدو لهذا المخلوق ضعفه وافتقاره الدائم إلى الله.

وكالقوة: الحياة والعلم والحكمة والرأفة والحنان والرحمة، وغير ذلك من المعاني، فهي بالنسبة للمخلوق صفات وأعراض تدوم للمخلوق ما دامت الحضرة الإلَهية مواصلة بها الإمداد عليه، فإذا ما زوى الله تعالى عن المخلوق ما أمدَّه به أضحى محروماً منه مفتقداً إياه، وليس يمكن أن يعيده إليه أحد إلا الله.

أما القوة بالنسبة لله تعالى فهي **ذاتية**، أي: لم تأته من أحد فيستردها منه، بل هو تعالى صمد في قوته، أي: باقي القوة، متينها فلا يمكن أن تزول قوته تعالى ولا يمكن أن يطرأ عليها ضعف أو نقصان، وكذلك الحياة والعلم والرأفة والرحمة وغير ذلك من المعاني، فهي كلها بالنسبة لله تعالى ليست بصفات ولا أعراض، بل إنما تشير إلى أسمائه تعالى، والأسماء ثابتة لا تتغير ولا تتبدل فمن أسمائه تعالى القوي والحي ومن أسمائه تعالى العليم والحكيم والرؤوف والرحيم، وهو سبحانه صمد في قوته، في رأفته وحكمته، صمد في كل اسم من أسمائه فلا يطرأ على أي اسم من الأسماء الإلَهية ضعف أو تبدُّل أو نقصان.

**فالصمد**: هو الذي يمدُّ دوماً ولا يستمدُّ أبداً.

جميع ما في الكون يستمدُّ منه تعالى الرأفة والرحمة والحنان، وهو وحده الممد فما المخلوقات كلها في حياتها ووجودها وما المخلوقات كلها في قوتها وبقائها إلا كالمصباح يبقى له الاشتعال وتدوم فيه الإنارة ما دام له الإمداد فإذا ما انقطع عنه الإمداد انطفأ وانمحى نوره وزال.

وهكذا فالكون كله في افتقار دائم إلى الله تعالى، والله سبحانه هو الصمد في سائر أسمائه فإذا اعتمدت عليه في أي أمر من الأمور فقد اعتمدت على سند قوي متين ومالك من سند ومالك من مُعْتَمدٍ سواه.

هذا وإنه لا بد لنا بعد أن فصَّلنا ما فصَّلناه من أن نسوق الكلمة التالية فنقول:

لقد أتينا في التعريف بكلمة (**الصَّمَدُ**) على ضروب من الشرح والإيضاح، فلم نأل جهداً في الشرح اللغوي وضربنا مختلف الأمثلة وجئنا بنماذج عديدة من الأقوال تبياناً لذلك المعنى الذي اشتملت عليه كلمة (**الصَّمَدُ**)، ولكن ذلك كله لا يمكن أن يصل بك إلى حقيقة المعنى ما لم

تسلك طريق الإيمان الذي شرعه الله تعالى لك على لسان رسوله الكريم، فإذا أنت لم تتعرف إلى خالقك ومربيك الذي حنَّت يده عليك بالإمداد والتربية وأنت في بطن أمك تمر من طوْر إلى طوْر ثم ما زالت تُعنى بك حتى صرت في هذا الحال من الكمال.

وإذا أنت لم تعقل هذه الحقيقة ولم تؤمن هذا الإيمان المبني على التفكُّر والنظر والاستدلال، فما الشرح الطويل ولا البيان اللغوي ولا الأمثلة مهما تعددت وتنوَّعت بمغنية عنك ولا معرِّفة إياك بحقيقة المعنى، إنك تظل في عالم الألفاظ والشروح اللغوية ولست بمستطيع أن تتذوق المعنى تذوُّقاً نفسياً ولا أن تجوز عالم الألفاظ واللغة إلى عالم الرؤية والمشاهدة النفسية.

وفي الحقيقة ماذا تغني الشروح اللغوية عمَّن حُرم حاسة الذوق إذا أنت أردت أن تصف له مذاق العسل أو بعض الفواكه والأثمار، وماذا تغني الأمثلة العديدة والبيانات البليغة من أعمى محروم من حاسة الرؤية، إذا أنت أردت أن تصف له جمال حديقة من الحدائق وأن تعرِّفه ببديع تناسقها وعظيم خلقها. إنك في عالم المشاهدة والرؤية وإنه في عالم الخيال والظن، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً، أما إذا أنت سلكت الطريق التي شرعها لك ربك وتابعت السير فيها خطوة إثر خطوة حتى وصلت إلى الإيمان الحق فهنالك تكتحل عين بصيرتك بنور المشاهدة، مشاهدة الحقائق التي تشير إلى الألفاظ فترى من كلمة (**الصَّمَدُ**) وأمثالها معاني جمة تسبح نفسك في مشاهدتها سبحاً طويلاً، وتستغرق في هذه المشاهدة استغراقاً عظيماً فإذا أنت في خضم واسع من الرؤية التي تمازجها السعادة النفسية وهنالك تتذوق من القرآن حينما تقرؤه حلاوة، وتجد له حينما تسمعه حسناً وطلاوة تزداد بربك حبّاً وله تعظيماً، ويتضاءل في عينيك سعي أولئك الذين يتيهون في التعرُّف إلى معاني القرآن باحثين في بطون الكتب وتستصغر همة الذين وقفوا من وراء حواجز الألفاظ يتخبطون في الأوهام، وقد ضل سعيهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، إنك تشكر الله تعالى على فضله وتحمده على ما عرَّفك به من القرآن من كماله تعالى وجلاله وعظيم أسمائه، قال تعالى:

{وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً}[1].

---

[1] سورة الإسراء: الآية (٨٢).

ولا أريد أن أسهب في هذه الناحية كثيراً، ولا أطيل لأن الصادق يغنيه الإيجاز عن الإسهاب والإطناب، ويكفيه لطيف الإشارة عن طويل العبارة، بل أتابع التأويل منتقلاً إلى الآية الثالثة من هذه السورة الكريمة، وهي قوله تعالى:

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾

أقول:

**يَلِدُ**: مأخوذة من كلمة (**وَلَدَ**) بمعنى صار له ولد، وبما أن الولد يكون نظير والده، ومماثلاً له في صفاته، والله سبحانه لم يلد، أي لا يمكن أن يكون له ولد يماثله في ذاته ولا في صفاته، وكيف يكون له ولد وهو الصمد!.**والصمد**: هو الذاتي الوجود والصفات، والتي هي الأسماء الحسنى. أما الولد فإنما يكون متولِّداً من غيره. فلا يمكن والحالة هذه أن يكون له ولد له مثل صفاته وهذا لا يكون ولم يكن أبداً.

وتريد كلمة (**لَمْ يَلِدْ**) أن تنفي الولد عن الله تعالى إنها تنفي أن يكون لله ولد. ذلك لأن الولد يقتضي وجود الزوجة، والزوجة يجب أن تكون متماثلة مع الزوج في الصفة، وبما أن الله تعالى ليس يماثله وليس يشابهه شيء لا في ذاته ولا في أي اسم من أسمائه، فليس من المعقول إذن أن تكون له زوجة، وبالتالي ليس يمكن أن يكون له ولد وذلك ما يريد أن يعرّفنا به الله تعالى في هذا الشطر الأول من الآية الكريمة التي نحن بصددها وهو قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ . .﴾.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا في مواضع أخرى منه فمن ذلك قوله تعالى:

{بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[1].

هذا وتقريباً لهذه الحقيقة من الأذهان وزيادة في توضيح المعنى للأفهام نعرض القضية على الشكل التالي فنقول:

ما أوقع كثيراً من الناس فيما أوقعهم به من بعد عن الإقرار لله تعالى بالوحدانية ونفي الشريك والولد إلا الجهل بالله تعالى والبعد عن الإيمان الحقيقي ذلك الإيمان الذي من دلائله ولوازمه أن

---

[1] سورة الأنعام: الآية (١٠١).

يشهد المرء طرفاً من عظمة الله تعالى وجلاله وأن تخر النفس ساجدة في سرها لتلك العظمة والجلال الإلَهي، فإن وصل المرء إلى هذا الحال من الإيمان كان من مقتضيات إيمانه أن ينفي بذاته الولد عن الله.

أما مادام المرء لا يعرف عن الله تعالى شيئاً أكثر مما سمع أو قرأ في الكتب، وما دام هذا الإنسان لم يتعرَّف بذاته إلى الأسماء أسماء الله الحسنى وما دام لم يشهد طرفاً من هذه الأسماء العليّة في نفسه فلا ريب أنه يظل نهبة للأوهام وعرضة لتصديق ما يُملى عليه من الأقوال.

أرأيت إلى الإنسان هذا المخلوق الضعيف الذي لا يعدُّ ذرة بالنسبة إلى هذا الكون العظيم، إنك لا تُصدِّق ولست ترى من المعقول أن تكون له زوجة وصاحبة من نوع من المخلوقات أدنى منه في المنزلة والرتبة، إنك تُجلُّ الإنسان وتنزِّهه عن ذلك وتقول: كيف يتصوَّر أم كيف يُعقل أن تكون للإنسان زوجة من غير جنسه، وليس بينهما شيء من مناسبة ولا تماثل في صفة من الصفات، إنك تقول جازماً وتقرِّر أن زوجة الإنسان يجب أن تماثله في الصفة وما سوى ذلك وهْمٌ لا يقرُّه عقل ولا يرضى به منطق.

فإن كنت لا تقر هذا ولا تطمئن إليه وتنفي الزوجية بين مخلوق ومخلوق حينما لا ترى ذلك التناسب في النوع والتماثل والتوافق أَمِنَ المعقول وهل من المنطق السليم أن تقر هذا وتطمئن إليه بين خالق ومخلوق!. والله تعالى ليس يشابهه وليس كمثله شيء... وهكذا فالله تعالى لا صاحبة له ولا ولد، بل كل ما في الوجود من أنفس وذوات، كل ذلك مخلوقات وكلّهم مفتقر إلى الله تعالى في الوجود والتربية والحياة. كل ما في الكون خلْقه وعباده وأكرم عباده عنده أتقاهم، وأحبهم وأقربهم إليه زلفى أصلحهم عملاً وأنقاهم نفساً.

وننتقل الآن إلى كلمة ﴿ . .وَلَمْ يُولَدْ ﴾ فنقول:

إذا كانت كلمة (**لَمْ يَلِدْ**) تنفي أن يكون لله تعالى ولد فإن كلمة ﴿ . .وَلَمْ يُولَدْ ﴾: **يولد:** مأخوذة من ولد أيضاً، بمعنى تولَّد عن غيره. هذا وبما أن الوالد إنما يكون أصلاً وسبباً في وجود ابنه، فالله سبحانه لم يولد كما لا يمكن أن يكون له والد: لأن الصمد كما رأينا ذاتيٌ في وجوده وفي صفاته.

**وَلَمْ يُولَدْ**: إنما تنفي الوالد، إنها تريد أن تعرِّفنا أن الله تعالى لم يأت من غيره وما كان أحد سبباً ولا أصلاً في وجوده. إنه سبحانه ذاتي الوجود والأسماء لا يحتاج في وجوده إلى غيره.

ومن هنا يتضح لنا أن الله تعالى أزلي قديم لا أول له ولا بداية، إنه هو القديم الأول ومهما قلت هو أول، فهو أول وأول وليس لوجوده وسائر أسمائه بداية وأول.

وأخيراً أراد تعالى أن يجمع لنا المقول ويعرِّفنا به سبحانه بكلمة وجيزة فقال تعالى:

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾

**الكفو**: هو المماثل والنظير، المماثل في الصفة والنظير من أية ناحية من النواحي التي يكون فيها مجال للتباين والتفاوت، تقول: هذا كفو لفلان في علمه إذا كانا بدرجة واحدة من العلم والمعرفة ومقدرة متماثلة على مقابلة الرأي والحجة بالحجة.

**ونقول**: هذا القائد كفو لهذا القائد، إذا كان أحدهما لا يقل معرفة عن صاحبه في رسم الخطة الحربية المناسبة وحسن تدبُّر الأمر في السوْق والتعبئة ومقارعة الخصم بمثل ما لديه من التنظيم والرأي والبسالة.

وهكذا فقد يتكافأ شخصان في العلم والقوة وقد يتكافآن في نفاذ الرأي وإصابة الفكرة. وللمخلوق دوماً الإمكانيات في أن يداني غيره ويقاربه أو أن يكافئه إذا هو سلك الطريق التي سلكها صاحبه واقتفى خطاه وآثاره.

هذا ما كان من أمر التكافؤ بين شخص وشخص ومخلوق وآخر، أما إذا أنت فكَّرت التفكير الذي يجب أن يقوم به الإنسان ونظرت في بدايتك وقد أتى عليك حينٌ من الدهر لم تكن شيئاً مذكوراً وإنك على ما ترى من علمك وقوتك وعظيم رأيك وكبير شأنك ما كنت من قبل إلا نطفة وإنك مدين بذلك كله إلى ربك أقول:

إذا أنت فكرت ونظرت هذا النظر وانتهى بك الأمر إلى أن أدركت ضعفك وشاهدت طرفاً من جلال خالقك وعظمة مربيك ورأيت هذا رؤية نفسية فهنالك تعلم طرفاً مما تشير إليه كلمة:

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

إنك ترى من عظمة خالقك ما لا تستطيع أن تدرك له حداً ونهاية، ترى ضآلة علمك وأنك مهما أحطت بشيء من العلم فما أدركت إلا ناحية صغيرة وما أوتيت من العلم إلا قليلاً وترى إلى جانب ذلك سعة علم الله تعالى وإحاطته بجميع ما في الكون وإن كنت لا ترى للكون نهاية.

إنه يعْظُم في نفسك علم الله تعالى حينما ترى أنه سبحانه يعلم ما في البر والبحر وكم في البر من مخلوقات وكم في البحر من مخلوقات!. نعم إنه يعْظُم في نفسك علم الله تعالى حينما ترى أنه ما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين، إنك ترى طرفاً من إحاطة علم الله تعالى بكل ما في الكون وتدبيره شؤون جميع من في الكون وما يلزم كل موجود في هذا الكون وهنالك ينقلب إليك البصر خاسئاً حسيراً عن أن يدرك لعلم الله تعالى حداً أو نهاية وهنالك تفهم بعض ما تشير إليه كلمة ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ إذا أنت نظرت إليها من ناحية اسمه تعالى العليم.

وتُكبر ربك تكبيراً وتجلّه إجلالاً حينما ترى أنه سبحانه هو القوي الذي بقوَّته تعالى قامت السموات والأرض وبقوته تجري هذه الأرض سابحة في الفضاء مع غيرها من الأجرام وبقوّته تتفجر الذرَّات فتعطي ما تعطي من آثار حرورية وكهربائية ومغناطيسية في الشمس والنجوم وفي كل مجال، وبقوته تعالى تهبُّ الرياح عاصفة عصفها الشديد وتموج البحار بعضها في بعض وتجري المياه وتسبح الغيوم في السماء وبقوته سبحانه ينتظم كل أمر.

هنالك وإذا أنت فكَّرت هذا التفكير وشاهدتْ نفسُك هذه المشاهدات تنقلب وأنت في حال قد أدركت معه طرفاً مما تشير إليه كلمة ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾، إذا أنت نظرت إليها من ناحية اسمه تعالى القوي.

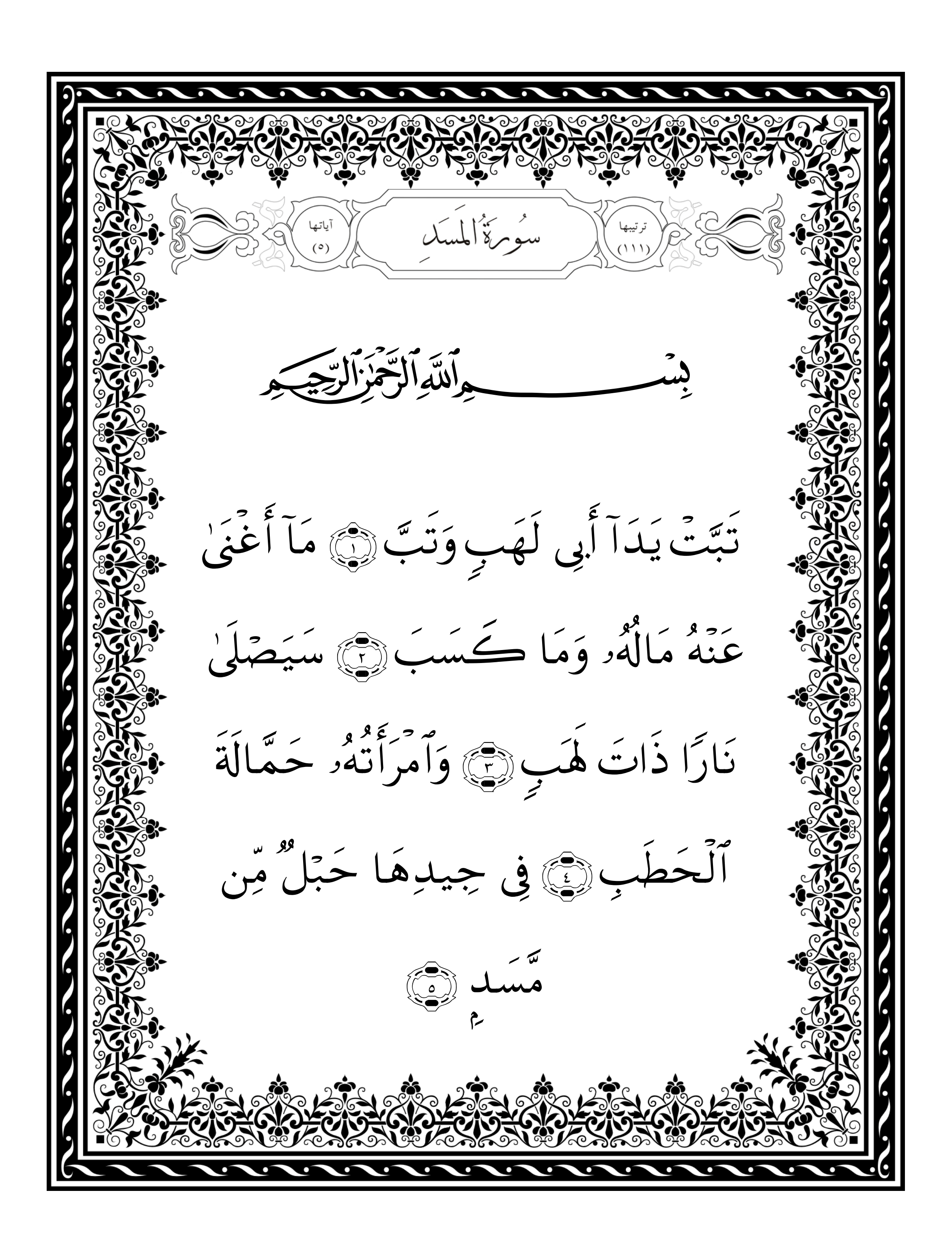
وكذلك الأمر بالنسبة لاسمه تعالى **الرحمن الرحيم والحكيم الخبير** وغير ذلك من الأسماء الحسنى وكلما دخلت في مجال من المجالات وتابعت التأمُّل وتوسَّعت في المشاهدات عظُمت في نفسك أسماء الله تعالى وعلمت أنه سبحانه لم يكن له كفواً أحد في قوته وعلمه وحكمته ورأفته ورحمته وسائر أسمائه.

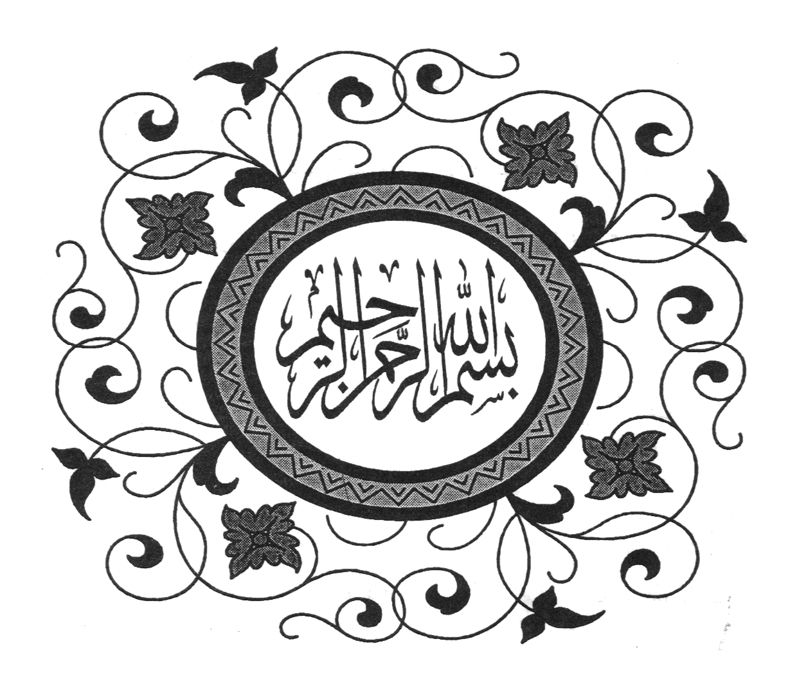
على أنك لا تقف عند كلمة ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ أمام حد من الحدود أو نهاية من النهايات فإن أسماء الله تعالى ليس لها نهاية ومهما توسَّعت فيها ونظرت ومهما رأيت وشاهدت فما أنت بمدرك ذرَّة من بحر، وهذا مثال والحقيقة أعظم وأعظم من أن تُمثَّل بمثال.

وهكذا فهو سبحانه القوي والعليم والرؤوف الرحيم وليس له كفواً أحد في أي اسم من أسمائه تعالى بل كل ما في الوجود عباد ومخلوقات يستمدون منه العلم والحكمة والقوة والرأفة والرحمة والحنان وهو سبحانه منبع كل فضيلة ومصدر كل كمال، فإن شئت علماً وحكمة وإن رمت شأناً وعزَّةً وإن أردت أن تنال رأفة ورحمة فأقبل عليه تعالى وتقرَّب إليه ومالك من معاذ، ومالك من ملجأٍ سواه، وهو الله **أحد** في رحمته وسائر كمالاته، وهو **الصمد** الذي **لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد**: أي لا مثيل له ولا نظير، فليس له والد ولا ولد، ولا يمكن أن يماثله في هذه الصفات أحد، بل هو المتفرِّد في ذاته، وهو الأحد في كل ما تقدَّم بيانه في هذه السورة من صفاته، وهو مصدر الكمال كله فمنه تعالى الكمال وبالإقبال عليه تصطبغ النفس بصبغة الكمال، وتشتق منه وحده الكمال، وهو سبحانه أحد في ذلك كله، فلا بداية له، ولا نهاية لوجوده.

والحمد لله لخلقه العوالم من نوره


سورة المسد


ترتيبها (١١١)
سُورَةُ المَسَدِ
آياتها (٥)
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ١ مَآ أَغْنَىٰ
عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ٢ سَيَصْلَىٰ
نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ
ٱلْحَطَبِ ٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن
مَّسَدٍۭ ٥




أتريد أيها الإنسان أن تعلم ماذا يكون عليه حال امرئ جاء إلى هذه الدنيا، ولم يتعرَّف إلى خالقه ومربِّيه، فلم يُطبِّق ما جاء في سورة الناس والفلق والإخلاص، أتريد أن تعلم ماذا يحل به إذا هو أهمل السعي وراء تلك المعرفة الرفيعة، التي يجب أن تتحلَّى بها نفسه حتى يكون جديراً بأن يُعد من بني الإنسان؟.

أتريد أن تعلم ما ينزل به من آلام وهو في ساعات الرحيل يوم يفارق هذه الدنيا ويودِّع هذه الحياة، ثم ماذا يتبع تفريطه هنا يوم القيامة من أحزان وما يخامر نفسه من حسرات، فإذا به يتهافت في الجحيم ويقتحم السعير تقاحم الفراش في النار؟.

إن كنت تريد أن تعلم ذلك فانظر إلى سورة المسد لِتقرأها بتدبُّر وإمعان، فهي تذكر لك عن هذا كلّه نموذجاً ظاهراً ومثلاً حياً.

إنها تذكِّرك بحال أبي لهب ذلك المسكين، الذي ما أفاده قرب نسبه من رسول الله ﷺ، وما أغنى عنه ماله شيئاً. وماذا يُغني عنه قُربه نَسَباً من رسول الله ﷺ ما دام لم يسلك الطريق التي أمر الله تعالى بها على لسان رسوله الكريم.

والأمر عند الله تعالى ليس موقوفاً على مال ونسب، بل كلٌّ مجزيٌّ بعمله وكلُّ امرئٍ بما كسب رهين.

قال تعالى: {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ}[1].

وما الذي يُخلِّص الإنسان ممَّا نزل به ساعة الوفاة من أحزان وحسرات، وقد جاءه رسولٌ من ربِّه فما اتبع إنذاره ولم يصغِ إليه.

ذلك طرف مما تريد أن توحي به هذه السورة الكريمة إلى نفوسنا، ونبدأ بأولى آياتها لنوضِّح طرفاً مما تشير إليه من معان فنقول:

يريد الله تعالى في الآية الأولى من هذه السورة الكريمة وهو قوله تعالى:

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾:

أن يبيِّن لنا أن الإنسان الذي لا يسلك طريق الإيمان لا يمكن أن يدرك ما يأتيه به الرسول من الحق عن الله، ولذا تراه يعارض ويعاند ويناصب رسول الله ﷺ العداء.

إنه يسعى في ردِّ الحق ودحضه خوفاً على دنياه وماله.

إنه يظن أنه إن سار بالحق سيخسر ما هو فيه من سعادة موهومة، ولذا يبذل الوسع في معارضة الحق وأهله، والحقيقة بخلاف ما يظن ويتوهَّم، فما يستطيع امرؤ مهما كاد ودبَّر أن يرد الحق ويُطفئ نور الله، والله متمُّ نوره وناصر رسوله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

لقد كادَ أبو لهب كثيراً، وسعى في ردِّ الحق ولم يألُ في معارضة رسول الله جهداً، وأراد ربك تأييد الحق ونصر رسوله الكريم وخذلان أهل الباطل، وردَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وإلى ذلك أشارت كلمة ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾، أي: عجزت يداه عن رد الحق وخاب مسعاهما، واللفظ مأخوذ من **تبَّ** بمعنى: عجز وخسر، **والتباب والتتبيب**: هو العجز ورجوع المرء عن مسعاه بخسران مبين، ويقال: كنت شاباً فصرت تابّاً.

**فيا أيها الإنسان** إذا أنت لم تسلك طريق الإيمان الذي أرشدك الله تعالى إليه، ولم تتعرَّف إلى خالقك ومربِّيك، فمن لوازمك استحكام الشهوات في نفسك، ومن شأنك معارضة الحق وأهله كما عارض أبو لهب ومن على سننه، وما ذلك عنك ببعيد، لكنَّ معارضتك هذه لا تبوء إلا بالفشل ولله العزَّة ولرسوله وللمؤمنين.

---

[1] سورة المؤمنون: الآية (١٠١).

أما كلمة (**وتب**) فإنها تشير إلى خسارة أبي لهب خسراناً أبدياً. كلمة (**تب**) تقول: وخسر أبو لهب خسراناً أبدياً لا يعوَّض، وماله إلى تدارك ما فاته من الخيرات من سبيل.

والحقيقة ما خلق الله تعالى الإنسان إلا ليكرمه وليتفضَّل عليه، وما أخرجه إلى هذه الدنيا إلا ليعدَّ نفسه لنيل هذا الفضل، ويكون يوم القيامة أهلاً للنعيم المقيم والسعادة الأبدية التي ليس لها حد أو انتهاء، وقد جهَّز الله تعالى الإنسان بما جهَّزه به من حواس فجعل له السمع والبصر والفؤاد ومنحه الفكر وجعل له في هذا الكون من الدلائل والآيات ما يستطيع به أن يتوصَّل إلى معرفة الله ويهتدي إلى حقيقة الإيمان، فإن هو فكَّر واهتدى إلى الله صلحت نفسه فأيَّد الحق وأهله، وكان إنساناً إنسانياً همّه خدمة الخلق كافة والإحسان إلى سائر المخلوقات فإذا هو مات فإنه يموت على خير ما يموت عليه إنسان، وهنالك يكون أهلاً لنيل الفضل الإلٓهي والخلود في النعيم.

أما أبو لهب ذلك الرجل المسكين، فقد أهمل ذلك كله وقضى الحياة في جمع الدرهم والدينار. إنه لم يفكِّر في يوم من الأيام ببدايته يوم كان نطفة في بطن أمه، كما لم يفكِّر في نهايته، إنه لم يهتدِ إلى خالقه، ولذا ما كان منه إلا معارضة رسول الله ﷺ والانغماس في الشهوات، وبذا خسر خسراناً أبدياً.

لقد خسر أبو لهب خسارة لا تعوَّض، إذ ما يكون لمن خرج من الدنيا وقد أهمل وفرَّط أن يعود إليها ويتلافى ما فات، وذلك طرف مما انطوت عليه كلمة (**وتب**).

﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾:

**وما أغنى عنه**: أي ما نفعه وما أجداه. تقول ما أغنى هذا الدواء عن المريض، أي: لم يفده فلم يدفع عنه ألماً ولم يجلب له راحة.

وتريد كلمة ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ..﴾ الواردة في هذه الآية الكريمة أن تقرر لنا حقيقة واقعة وأن توقظ نفوساً غافلة، إنها تقرِّر لنا أنَّ أبا لهب لم يفد من ماله شيئاً، لقد حسب أن دنياه ستدوم عليه وسيبقى.

لقد نسي أن مع الحياة موتاً، ومع الدنيا آخرة، لقد غفل عن تلك الساعة التي يُجرَّد فيها المرء من جميع ما يملك حتى ملابسه التي على جسده، ثم يساق إلى القبر فريداً وحيداً، لقد غفل

عن أن الملائكة ستأتيه لقبض روحه، وساعتئذٍ لا يغني عن المرء ماله ولا يدفع عنه شيئاً مما سيحلُّ به.

كن أيها الإنسان مهما شئت غنياً، واجمع ما شئت من حطام الدنيا ومن أموالها، وإن شئت فكن أغنى امرئٍ فيها، ولكن ما يُغني عنك مالك كله إذا جاءتك الملائكة لقبض روحك، ما يغني عنك المال وما يدفع من سكرات الموت وغمراته.

إنك إن لم تتعرَّف إلى ربِّك، لتتمنَّى في تلك الساعة الرهيبة وقد أحاط بك أهلك وذووك أن تفتدي من تلك الآلام بجميع ما كنت تملك، إنك تتمنى أن لو كان لك ملء الأرض ذهباً فتفتدي به وتتخلَّص مما هو نازل بك، ولكن هيهات هيهات لما تريد وتتمنى، إنه الموت، إنها ساعة الرحيل، إنه الأجل قد حل وجاء، والأجل إذا جاء لا يؤخَّر والملائكة لا يفرطون، قال تعالى:

{وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ}[1].

والداهية أشد على النفس وقعاً، والمصيبة أعظم ساعتئذٍ من أن تحيط به وصفاً، إذا كان الغني كأبي لهب تفريطاً، وأشبه به معارضة للحق وصدوداً، يرى الملائكة يومئذٍ وقد جاؤوه لا للبشرى بالنعيم بل بالجحيم والعذاب المقيم، فيتمنَّى الخلاص وما إلى الخلاص من سبيل، ويرجو الرجوع إلى الدنيا لتلافي ذلك التفريط ويتعذَّر الرجوع يومئذ عليه، ثم إنه ينظر يومئذ إلى ماله الذي من أجله ضحَّى بالآخرة وبما فيها من نعيم، فإذا بالمال لا يغني عنه ولا يخلِّصه مما هو فيه، هنالك يصيح ألماً وتزداد الأنَّات والزفرات تصاعداً، وما أتعس هذا الإنسان إذ ذاك وما أشقاه.

قال تعالى: {يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا ، وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا، أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ، وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً ، الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ، وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ، يَاوَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً ، لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً}[2].

---

[1] سورة الأعراف: الآية (٣٤).

[2] سورة الفرقان: الآية (٢٢-٢٩).

ذلك طرف من حال امرئٍ لم يتعرَّف إلى ربِّه، بل أعرض عن سلوك طريق الإيمان فكان ماله وبالاً عليه وخُسراً.

إنه ينظر إلى المال ساعة الموت، فإذا به في تلك الساعة يفارق المال وكان أعز شيء عليه فيموت حسرة، وينظر إلى المال وقد عارض من أجله الحق وأهله فأوبقه بما أوبقه به، فيزداد ألماً وشقاوة ثم يُصار به إلى القبر، وفي القبر ما فيه من وحدة ووحشة، وللنفس في القبر مخاوفها وروعها، فإذا بالمال لا يغني عنه شيئاً بل على العكس يزيده خوفاً وفزعاً ووحشة، فإذا كان يوم القيامة فهنالك يتمثَّل له ماله عدوّاً لدوداً ظاهراً وتتبدى له حقيقته سافرة، وما يزال من ماله في شقاوة وما يزال منه في بلاء وتعاسة، والفقير والتعيس كل التعاسة من اشترى الكفر بالإيمان والضلالة بالهدى، قال تعالى:

{أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ، مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ}[1].

ذلك بعض ما نفهمه من كلمة ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ بالنسبة لما صار إليه أبو لهب، عندما حلَّ به الأجل وفارق هذه الدنيا.

هذا وإذا كان المال لم يغنِ عن أبي لهب عند الموت ومن بعد هذه الحياة شيئاً، أفتظن أنه كان سعيداً به في دنياه وأنه وصل إلى بغيته منه؟. ذلك ما نريد أن نبيِّنه الآن فنقول:

من ذا الذي من بني الإنسان لا يحب أن يكون أحسن وضعاً مما هو عليه؟.

ومن الذي لا يسعى منهم نحو حياة يكون فيها أسعد حالاً وأهدأ بالاً وأكثر استقراراً وطمأنينة؟.

إن السعي نحو الكمال قانون شامل يخضع له النوع الإنساني قاطبة، ويتميَّز به عن كثير من المخلوقات، وحيث إن الأكثرية الساحقة من الناس يحسبون أن السعادة الكاملة والحياة الطيبة يحققها المرء إذا أصبح ذا مال وفير وغنى كبير، لذلك تراهم يتبارون في جمعه ويبذلون قصارى

[1] سورة البقرة: الآية (١٦-١٧).

الجهد في الحصول عليه، يركبون المخاطر والمشاق ويضربون في الأرض في براري وبحار، يتحمَّلون في سبيله ما يتحمَّلون ظنّاً منهم بأنهم يحصلون بالمال على ما يشاؤون ويؤمِّنون به ما يرغبون ويحبُّون.

على أنك إذا ذهبت تبحث وتحقِّق وجدت الأمر بخلاف ما يظنون، فالمال مهما كثر وزاد ما هو بمؤمِّن للإنسان جميع ما يحبه ويتمنَّاه، فكم من أغنياء حصلوا على الملايين من الدنانير، يتمنون من صميمهم أن لو لم يكونوا مالكين لشيء من المال ولهم من الصحة والنشاط ما للآخرين من الفقراء المعوزين.

ولو أنك قارنت بين الفريقين لما وجدت أولئك الأغنياء أسعد حالاً من هؤلاء الفقراء، بل كم من الأغنياء المثريين باتوا ليلهم تؤرقهم الهموم والأحزان، منبعثة عن أوضاع مؤلمة في الحياة من زوجات أو أولاد أو مخاوف وعدم استقرار، على حين بات الآخرون ملء جفونهم، لا يُنغِّص صفوهم شيء من هموم أو أكدار وإن كانوا لا يملكون شَرْوَ نقير.

وهكذا فليست السعادة في درهم ولا دينار، والحقيقة كل الحقيقة أن السعادة في الرضى، رضى المرء بما هو فيه كيفما تقلَّبت الأيام وتبدَّلت الأحوال ودار الزمان.

**السعادة** أن ترضى بما أنت فيه، إن كنت مريضاً مدنفاً لا تستطيع حراكاً، أو فقيراً معدماً لا تملك قليلاً ولا كثيراً.

**السعادة** أن ترضى بما صرت إليه حتى ولو أدى بك الأمر إلى نزولك عن سلطان كبير وجاه عريض.

**السعادة** أن ترضى وتطمئنَّ نفساً بكل ما يعرض لك من أحوال الحياة، حلوها ومرِّها، عسرها ويسرها، فإذا ما استوت لديك الأحوال، ورضيت بها جمعاً فقد حصلت على السعادة، وفيما سوى ذلك ما دمت في أحوال الدنيا لا ترضى بما أنت فيه فما أنت من السعادة في شيء.

وتعجب من قولي هذا فتتساءل مستنكراً: أمن الممكن وهل من المعقول أن يكون المرء راضياً وقد أضحى في حزن الحياة من بعد سهلها، وأصابه عسرها من بعد يسرها، وذلُّها من بعد عزِّها؟. ومن الذي يرضى بما تقول إلا أن يكون جماداً قُدَّ قلبه من صلب الصخر، أو أن يكون متيقِّناً بما يتلو هذه الشدة والعسر من رفعة تفوق أضعاف ما كان فيه من بسطة وسعة ويسر؟.

**وفي الجواب عن هذا نقول:**

لك الحق فيما قدَّمت من قول واعتراض، وأنه ليس من السهل ولا اليسير أن يرضى المرء بما يحل به من مكاره وشدائد، لكنه إذا علم متيقِّناً أن هنالك يداً واحدة تتصرَّف في هذا الكون وتسيِّره ضمن العدالة الإلَهية والحكمة ووفق الرأفة والحنان والرحمة، وأن هذه اليد المسيِّرة والإرادة الحكيمة المدبِّرة هي أرأف وأرحم بالإنسان من أمه وأبيه وصاحبته وبنيه، حتى ومن نفسه التي بين جنبيه، وأنها لا تسوق له إلا ما يكون سبباً في صلاحه وبما يعود عليه بالخير العميم وإنَّ ما أصابه إنما أصابه بسبب ما قدَّمت يمينه، أقول إذا عرف الإنسان هذا حق المعرفة، لا بل إذا آمن الإنسان بهذا حق الإيمان، وإن شئت فقل إذا آمن الإنسان حقاً بكلمة الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، فهنالك يطمئن قلباً ويهدأ بالاً ويستسلم كل الاستسلام، ويرضى بتصاريف القضاء رضىً يجعله لا يضطرب لحال ولا يتألم من تبدُّلات الزمان، وكيف يضطرب أو يتألم وهو يرى أن هذه اليد الرحيمة والإرادة العطوفة الحكيمة ما منعت عنه إلا لتعطيه، وما أخذت منه القليل إلا لتمنحه الكثير، ثم كيف يتألم ويضطرب وهو يرى قربه من تلك الذات العلية، يشهد من كمالها ويرى من جلال أسمائها وجميلها، ويشعر بنعيم قربها ولذيذ وصلها، شعوراً ما تُعد لذائذ الحياة كلها إلى جانبه بالنسبة إليه شيئاً مذكوراً.

وهكذا فليس يسعد المرء السعادة الحقة إلا إذا كان راضياً، وليس يرضى حقاً إلا أن يكون مؤمناً بخالقه مستسلماً إليه، شاعراً بحنانه ورحمته ومنه قريباً.

أما الذين أعرضوا عن خالقهم وكفروا بربِّهم واحتموا بأبي لهب بجمع الدرهم والدينار، فليس المال بمؤمِّنٍ لهم ما يتطلَّبون من السعادة، وحياتهم كلها شقاء وأحزان ونغص، وقد أشار تعالى إلى ذلك بقوله الكريم:

{وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى}[1].

{لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ}[2].

وذلك أيضاً ما أشارت إليه السورة الكريمة التي نحن بصددها في قوله تعالى:

---

[1] سورة طه: الآية (١٢٤).

[2] سورة الرعد: الآية (٣٤).

## ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ﴾:

أما كلمة (**وَمَا كَسَبَ**) فإنما تضيف إلى ما سبق معنى جديداً، نوضِّحه لك بعض الإيضاح فنقول تمهيداً لفهم هذه الكلمة وتقريباً لها من الأذهان، نضرب المثل الآتي فنقول:

هب أن والداً أرسل ابنه إلى مدرسة من المدارس النموذجية الراقية، وأن هذه المدرسة كانت ذات إدارة ممتازة، وكان من كبير عنايتها بطلابها أن زوَّدت مكتباتها بجميع ما يلزم الطلاب من الكتب القيِّمة المفيدة التي تساعدهم على التعلُّم والمطالعة، وجهَّزت مختبراتها بكل ما يعين على البحث العلمي والوصول إلى المعرفة، وغرست في باحاتها وحدائقها صنوفاً من الأشجار الظليلة باعثة الهواء النقي، وزيَّنتها بمختلف أنواع الأزهار الجميلة ذات الأريج العطر مما ينعش نفس الطالب ويساعده على الدراسة، وكانت تُقدِّم لطلابها على فترات معيَّنة وجبات من الأشربة المزَوَّدة بمختلف الحيوينات (الفيتامينات)، ووقعات من الطعام المغذي المنوَّع من لحم وخضر وزبد وبيض وعسل وفواكه وأثمار متعددة، وموائد حَوَتْ كلَّ طيب لذيذ من الأغذية، ثم هي إلى جانب ذلك كله قد وكّلت أمر تربية طلابها وتعليمهم إلى معلِّمين ذوي الاختصاص العالي في التربية والتعليم، فما كانت تختار إلا أغزر المعلِّمين علماً وأوسعهم مادةً وأعظمهم خُلُقاً وأزكاهم نفساً وأشدهم لطلابهم رأفةً وعطفاً، وأكثرهم عليهم حرصاً وغيرة، إلى غير ذلك مما لا يتسع المجال للإفاضة فيه والتفصيل في بيانه.

كل ذلك أعدَّته هذه الإدارة المدرسية الحكيمة لطلابها، وكل ذلك مما ذكرناه كان مهيَّأً مذلَّلاً لهذا الطالب الذي أوفده أبوه إلى هذه المدرسة، حبّاً به وسعياً في أن يكون هذا الابن في ما بعد عظيم الشأن سامي المنزلة ظافراً بسعادة المستقبل، لائقاً بمعاشرة ذوي المقامات الرفيعة الكبيرة والسلطان، أفتظن بعد أن عرضت لك ما عرضت مما أحاط به وما لم يحط به البيان والوصف، أنَّ الوالد قَصَّر في شيء مما عليه من حق تجاه ولده؟.

ولكن أتدري ماذا فعل هذا الابن بعد هذه العناية الوافرة، وبماذا قابل هذا العطف والحنان الأبوي؟. وما الذي كان منه خلال حياته المدرسية؟. وماذا فعل بالكتب والأدوات؟.

لقد كان شديد النقمة على أبيه، فعدَّ إرساله إلى المدرسة نوعاً من العقوبة وتقييد الحركة، فكفر بنعمة أبيه ولم يفكِّر في يوم من الأيام بعنايته به وعظيم فضله عليه، وكان من نتائج كفره وعدم

تفكيره أن جعل يشاكس المعلمين ويناصبهم العداء، ويقف في وجههم وقفة النِّد للند لا بل موقف الخصم من الخصم، لا يصغي إلى نصيحة ولا يقرأ في كتاب ولا يلتفت إلى درس، وكان شديد الإيذاء والبغي على رفاقه، فما كان أحد مهما عزَّ وغلى حتى مجاوروه بأسعد حظاً وأكرم معاملة من الأباعد، لقد كان مسيئاً للجميع كأنه كتب على جميع من عاشره وصاحبه ألا يرجع بخير.

أما الأدوات والوسائل وكذلك الكتب والأقلام وجميع ما يساعده على البحث والتعليم والتفوُّق فقد اتَّخذ منها وسيلة لعبثه ولهوه، وأخذ يستعملها في غير ما وضعت من أجله، وفي نهاية النهايات من هذه الحياة المدرسية الممتلئة بشتى المخالفات، ما كان منه إلا أن وقف يُشاقق ويُعارض، وانبرى يُخاصم ويُناجز معلِّمه الذي فاق المعلِّمين كلهم علماً وعطفاً ورأفة وحناناً، وهنالك طُرِدَ من المدرسة إلى غير رجعة، وإن هي إلا عشية يومٍ أو ضحاها حتى أضحى ذا وذا من رفاقه أيام الدراسة في أعلى المناصب، فمنهم الأمير والوزير، وفيهم المعلم والحاكم والمهندس والتاجر والطبيب، وإذا هو في هذا المجتمع الزاخر بالعلم والمعرفة وبين هؤلاء الكبراء من القوم، من أحطِّ الناس منزلة وأسفلهم مكانة وشأناً، ذلك هو مثل الحياة الدنيا وذلك هو مثل أبي لهب وأمثاله من المعرضين فيها.

وبالحقيقة ما الحياة الدنيا إلا مدرسة، أرسل الله تعالى الإنسان إليها ليعد نفسه فيها كما ذكرنا من قبل، وخلال فترة وجيزة إلى تلك الحياة الآخرة، ومن كبير عنايته تعالى بهذا الإنسان وعظيم رحمته أن جهَّزه في هذه الدنيا بجميع ما يلزمه ويساعده على الوصول إلى ما أراد له تعالى من السعادة من بعد هذه الحياة الدنيوية، فمن ذلك أن خصَّه بتلك الجوهرة الثمينة والجهاز العظيم وأعني به الفكر، الذي بواسطته يتوصَّل إلى عقل الحقائق، كما جعل له السمع والبصر وسائر الحواس، خادمة ومعينة لهذا الجهاز في بحثه العلمي وطلبه الوصول إلى الحقيقة.

ومن عنايته تعالى أن جعل في هذا الكون لا بل جميع ما في الكون من أرض وسماء، وما فيهن من مخلوقات حتى الإنسان ذاته، وما احتوى جسمه من أجهزة وأعضاء، كل ذلك جعل تعالى فيه من عظيم الدلائل وبالغ الآيات ما يساعد الإنسان على الوصول إلى الهدف المنشود،

وبلوغ منازل الإيمان الذي هو الركن الأساسي الذي تتوقف عليه السعادة، ولا يمكن أن ينالها امرؤ من دونه مهما جهد وكدَّ ومهما قدَّم من أعمال.

وقد أكرم الله تعالى الإنسان في دنياه، بما أكرمه به من صنوف النعيم وأغدق عليه ما أغدق من نعيم وخيرات عوناً له على مهمته وتيسيراً عليه الطريق في سَيْره وتخفيفاً للأعباء.

وما الأنبياء والرسل الكرام إلا مبلِّغون عن الله تعالى وحيه وهدايته، جعلهم الله سبحانه قدوة حسنة للعالمين. وما المرشدون الهداة إلى سواء الصراط إلا مُعلِّمون ومربُّون اختارهم الله تعالى من أنبل الناس وأكرمهم خُلُقاً وأعلمهم بخالقهم وأقربهم إليه زلفى وأعطفهم على الناس، وأشدهم بهم رأفة ورحمة، أما المال، المال الذي يمد الله تعالى به الإنسان في هذه الحياة، وكذلك البنون والأزواج والجاه والسلطان والعلم والقوة والوظائف والمناصب العالية وجميع ما يتفضَّل به الله تعالى عليك، ما كل ذلك إلا أسباب جعلها الله تعالى بين يديك وأكرمك بها لتتوصَّل بسببها وواسطتها إلى فعل المعروف والإحسان وعندئذ تكون أهلاً لأن تأوي في الدار الآخرة إلى كنف الرحيم وتستغرق في تلك السعادة التي ليس لها حد وليس لها انتهاء.

والمؤمن الذي نوَّر الله تعالى قلبه بالإيمان يعرف المراد من إرسال الله تعالى إياه إلى هذه الحياة، كما يعرف لماذا أنعم الله تعالى عليه بما أنعم من مال وأولاد أو عز وجاه وسلطان، أو علم وحسن بيان، فإن أنت سلكت الطريق التي شرعها لك ربك، وإن أنت وصلت إلى الإيمان الحق وحللت في منازله، فهنالك تنكشف لك الحقائق وترى صدق ما بيَّنَّاه وذكرناه.

إنك تدرك المراد الإلٰهي من خلق هذا الكون والغاية من إرسال الإنسان إلى هذه الحياة الدنيا، إنك ترى عظيم عنايته تعالى بك وكبير فضله عليك بما منحك وأعطاك، إنك ترى ما في المال من الخير لمن بذله في الأوجه التي ترضي الله وتجد ما في تربية البنين والبنات من السعادة وما عند الله تعالى من الجزاء الحسن لمن أدَّى الأمانة، فأحسن تربية أولاده وأخذ بأيدهم إلى سبل السعادة والإيمان. إنك تدرك وإن قلَّ من يدرك ما في الوظائف والمناصب من خير عميم لمن سخَّرها في خدمة الخلق والإحسان إلى الناس، وهنالك تشكر الله تعالى على ما أعطاك من مال وما أكرمك به من زوج وأولاد وما تفضَّل به عليك من منصب أو علم أو جاه وسلطان. إنك إذا عرفت الله تعالى وآمنت به حق الإيمان لأنت السعيد السعادة الحقيقية، وليس أحد من

أهل الدنيا بسعيد مثلك لأنك عالم بما تجنيه كل يوم من الخيرات سواءً بذلك المال أو بمدِّ يد المعونة لذوي الضرورة والاحتياج، أو بإرشاد ذوي العقول التائهة والأخذ بيد أصحابها إلى سبل الإيمان، وتعريفهم بصاحب الرحمة والحنان، نعم إنك إذا آمنت بالله حق الإيمان، لأنت السعيد السعادة الحقة، سعيد في دارك وأهلك، سعيد في زوجك وأولادك، سعيد في عملك ووظيفتك، سعيد في حياتك ومن بعد موتك، سعيد في دنياك وأخراك.

أما أبو لهب وتعساً لأبي لهب وأمثال أبي لهب، فما كسب من الحياة قليلاً ولا كثيراً، مات أبو لهب وقد جمع مالاً وفيراً خلَّفه لورثته وبنيه من بعده وما أفاد هو منه شيئاً إذ لم ينفق منه في سبيل الخير درهماً، مات وترك المال وسيتركه وارثوه.

مات أبو لهب وما كسب من جاهه ومكانته في قومه، إذ لم يساعد أحداً، ولم يمد لعاجز من معونة يداً. مات أبو لهب وما كسب من عمره الغالي الثمين، بل أضاع فرصة وجوده في هذه الحياة سدى، لقد بخل على نفسه في فعل المعروف، لقد كان بعيداً عن كل عطف وإحسان، لقد أضاع هذه الحياة الدنيا وما كسب فيها شيئاً من عمل صالح أو خير، وذلك طرف مما نفهمه من كلمة ( وَمَا كَسَبَ ). وانتهت بأبي لهب مرحلة الحياة وحل به الموت، فما أعظم ساعة الموت عليه، وما أشقاه في ساعة الفراق والرحيل، لقد كان باستطاعته أن يكون من أسعد المخلوقات وأظفرها من النعيم المقيم، لكنه أضاع الفرصة واشترى حياة الدنيا بالآخرة فما ربحت تجارته وما كان من المهتدين.

لا تسأل عن عظيم آلام أبي لهب وأمثاله ممن أضاعوا العمر سدى، ويكفيك أن تقرأ آية:

﴿ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾

لتدرك طرفاً مما يلازم نفسه من آلام وما يخامرها من أحزان وحسرات.

سيصلى أبو لهب ناراً موقدة، ناراً شديدة الاشتعال، إنها نار ذات لهب أعدها الله تعالى لأبي لهب وأمثاله ممن ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

**ولعلك تقول:**

كيف يُعِدُّ الله تعالى وهو الرحمن الرحيم هذه النار ذات اللهب لهذا الإنسان الضعيف الذي لا يقوى على النار ولا طاقة له باحتمال الحريق؟.

**وفي الجواب عن هذا أقول:**

لو أنك عرفت حال أبي لهب وأمثاله ممن فرّطوا وضيّعوا الحياة سُدى، ولو أنك اطَّلعت على ما يحرق قلوبهم من الندم والحسرات بسبب ما ضيَّعوه على أنفسهم من الخيرات، ولو أنك رأيتهم وقد لبسوا ثوب المذلَّة والعار مما كسبوه من دنيء الأعمال ماتوا وذهبت عنهم الشهوات ورجعوا إلى فطرة الكمال فعلموا دناءاتهم وخجلوا بأثواب الانحطاط التي ارتدوها فاحترقت نفوسهم بلهيب الذل والعار وفاضت بالحسرات على ما فرَّطوا في سبيل المال وكم أضاعوا من الجنَّات الخالدات وكم خسروا من السعادات الكبرى، أقول:

لو أنك اطَّلعت على هذا كله وتحقَّقت به لعلمت أن النار المحرقة التي أعدَّها الله لهؤلاء هي لآلامهم النفسية خير دواء وعلاج وحسبك أن تطَّلع على ما جاء في كتاب الجامع الصغير من حديث شريف ورد عن رسول الله ﷺ مفسراً هذا إذ يقول ﷺ:

**«إنَّ العار ليلزمُ المرءَ يوم القيامة حتى يقول: يا ربِّ لإرسالُكَ بي إلى النار أيسرُ عليَّ مما ألقى، وإنه ليعلَمُ ما فيها من شدة العذاب»**[1].

وإنك إذا قرأت هذا الحديث الشريف وأمعنت فيه علمت أن تعريض هؤلاء أنفسهم للهيب النار وحريقها أهون عليهم من آلامهم النفسية، وعرفت أن تعذيب النفس وألم الوجدان لا يحتمله متحمّل وليس يُطاق، وما لهذا العذاب النفسي من علاج، وما لهذا المعذَّب نفسياً إلا النار، تُنسيه شدَّتُها وألم حريقها آلام النفس وتعذيبها، ونعوذ بالله من أن نذِلَّ ونخزى، ونعوذ بالله من أن نعمل ما يضطرنا إلى أن ننساق إلى النار ونُعذَّب فيها، وقد أشار تعالى إلى ذلك بقوله الكريم: {قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ، مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ}[2].

فيا أيها الإنسان ثِقْ بحنان ربِّك وعطفه عليك، قدِّرْ رأفته بك، واعلم أنه تعالى بالناس لرؤوف رحيم. إنه يسوق لك من أبي لهب مثالاً، إنه يضع بين يديك قصةً واقعية، إنه يذكر لك عن موت أبي لهب مثالاً، وقد أضاع عمره الثمين عبرة، وما كل ذلك إلا من حبِّه بك وحرصه

[1] الجامع الصغير: (٢٠٥٩). (ك) عن جابر (ح).

[2] سورة الأنعام: الآية (١٥-١٦).

على هدايتك، وبعد هذا تقول: خلقني الله ولم يوفِّقني لصالح الأعمال، أبعد هذا تقول كتب القدر عليَّ الشقاء والهلاك!.

أبعد هذا تقول لو شاء الله لكنت محسناً؟. أفلا تعلم أن المشيئة إنما هي وَقْفٌ عليك، فإن شئت الهدى وسلكت طريقه هداك الله وأراك، ألم يأنِ لك أن تعلم أن المشيئة الإلّهية لها سنن وقوانين، وأن من قوانينها سعي العبد ذاته وصدقه في طلب الحقيقة؟. فإن شاء المخلوق الهدى وصدق في ذلك وألحّ فيه هداه الله تعالى وفتح عليه.

لا أطيل عليك الآن في هذا ولا أتوسَّع فيه وأدع التفصيل لمناسبة أخرى أعرِّفك فيها بقوانين المشيئة الإلّهية وسننها، تعريفاً متوافقاً مع عدالة الله تعالى ورحمته، وتسايراً مع جلاله تعالى وعظمته وما يليق بكماله.

وأتابع التأويل وأنقلك إلى الآية التالية المبدوءة بكلمة ﴿وَامْرَأَتُهُ. . ﴾ فأقول:

تفيد هذه الآية الكريمة أن امرأة ذلك الرجل المفرط الذي فارق الحياة وما كسب فيها شيئاً من خير، هذه المرأة ستصلى معه أيضاً ناراً ذات لهب، وقد أبان تعالى لنا السبب الذي أدَّى بهذه المرأة إلى النار، فقال تعالى:

﴿. . حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾

وهكذا فالرجل والمرأة أمام العدالة الإلّهية سيَّان، ولكُلٍّ منهما جزاؤه المبني على عمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

فالمرأة التي تُضيِّع الحياة سدى ولا تكتسب فرصة وجودها فيها، المرأة التي لا تُعمل تفكيرها في طلب الحقيقة ولا تُفيد من تلك الجوهرة الثمينة التي أكرمها الله تعالى بها، المرأة التي لا تنظر في هذا الكون ولا تتعرَّف منه إلى خالقها ومربِّيها، المرأة التي لا تنظر في بدايتها يوم أودعت في بطن أمها نطفة، كما لا تنظر في نهايتها يوم تودع في قبرها حيث لا أنيس لها ولا رفيق سوى عملها، المرأة التي تستكبر عن النظر في آيات الله ولا تصل حقاً إلى الإيمان بالله تظل عمياء القلب جاهلة تتخبَّط في جهالتها غير مدركةٍ خيرها من شرها، ضالةً عن طريق سعادتها، لا تعرف من الدنيا إلا الحصول على رغائبها وشهواتها فإذا هي آلة في يد غيرها، يجرُّها زوجها إن كان ضالاً فتنساق معه في مهاوي الضلال، لا تدري إلى أين يسير بها.

وهكذا سارت امرأة أبي لهب معه إلى النار وبئس القرار، ولو أنها آمنت بخالقها وعرفت ربَّها لما أعطته زمامها يسوقها إلى مهاوي الهلاك، كما تنساق بهيمة الأنعام، وما ظلمها الله تعالى ولكن ظلمت نفسها، وقد أشار الله تعالى إلى هذه الناحية بقوله الكريم:

{ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ، وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ، وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ}[1].

**ولعلك تقول**: تشير الآية الكريمة بكلمة (**حَمَّالَةَ الْحَطَبِ**) إلى عمل هذه المرأة السيء، الذي ستصلى بسببه النار فما هو هذا العمل السيء، وماذا نستطيع أن نفهمه من كلمة (**حَمَّالَةَ الْحَطَبِ**)؟.

**وفي الجواب عن هذا نقول:**

**الحطب**: في الأصل ما أُعدَّ من الشجر ليكون فيما بعد وقوداً تضرم به النار وتوقد فالنار كامنة فيه وليس بذي اشتعال، فإذا ما حان الحين وأدنيت منه ثقاباً كان لها لهب واضطرام.

**والحمَّالة**: صيغة من صيغ المبالغة، وهي تعني: كثيرة الحمل، المبالغة فيه، وقد عبَّرت الآية الكريمة عما كانت تقوم به هذه المرأة الكافرة من معارضة الحقِّ والصدِّ عن سبيل الله وغير ذلك من الأعمال السيِّئة، التي تصدر من الإنسان في هذه الحياة، إنما هي حطب سيوقد فيما بعد في نفسه وسيكون له اضطرام واشتعال، فترى المعرضين الآن يباشرون في هذه الحياة ما يباشرون من الموبقات، وتلقاهم فرحين بما ينالون من الشهوات الدنيئة، وما يصلون إليه من غرور الحياة، لا يبالون ولا يكترثون بما سيصلونه من مناقشة الحساب على الأعمال، حتى إذا ما نزل بساحتهم الموت فهنالك وبمثل هذه اللحظة تنكشف الحقائق ويبدو لكلٍّ منهم سوء عمله فيخجل ويخزى مما بدر منه من دناءة وانحطاط، ويلتهب في نفسه ما جمعه مدى العمر من حطب الأعمال، فإذا بالنفس المجرمة قد انقلبت أعمالها عليها ناراً وغدت في حال داخلي، وما

[1] سورة التحريم: الآية (١٠-١٢).

النيران المادية التي في الدنيا إذا أضرمتها أنت جميعها وألقيت به فيها أقول: ما هذه النيران بأشد عليه أثراً من تلك النار المعنوية، نار المذلة والعار، نار الندامة والحسرة، التي يؤجّجها في نفسه ما قدَّمه من دنيء الأعمال بعد زوال الشهوات والعودة لفطرة الكمال.

لقد جمع هذا المجرم لنفسه طوال عمره وحياته بأعماله السيِّئة حطباً كمنت فيه النار فما كان يشعر بشيء مما سيحل به ويلقاه، فإذا ما جاء الأجل وحلَّ الموت، فهنالك يصحو هذا الإنسان من سكرته وينتبه من غفلته، وجاء في الحديث:

«**الناسُ نيام، إذا ماتوا انتبهوا**».

وإذا بأعمال هذا المجرم قد ألهبت نفسه ناراً وألماً، لا صبر عليه ولا احتمال.

والآن وبعد أن قدَّمتُ لك ما قدَّمت، أعتقد أني قرَّبت لك بعض التقريب ما تشير إليه كلمة (**حَمَّالَةَ الْحَطَبِ**)، وعرَّفتك لماذا سمّى الله تعالى أعمال المرء السيِّئة التي يُباشرها في الدنيا حطباً. وعرفت أيَّ نارٍ توقد وتضرم هذه الأعمال، وإن شئت فقل هذه النار تتناسب مع مقدار ما يحمله الإنسان من أوزار وسيِّء الأعمال.

ولكن ما العمل في هذا المعذَّب نفساً يوم القيامة وقد أصبح في مثل هذه الحالة؟.

كيف يتخلص مما هو فيه من ذل وعار، وقد رأت جميع الخلائق ما هو عليه من دناءة وانحطاط؟.ما الطريق وما السبيل إلى الخلاص من هذا العذاب النفسي الذي لا يُطاق؟.كيف يستر الإنسان عن نفسه ما يتأجَّج فيها من نار الحسرة والخجل والهوان؟.

إنها لآلام تسحق النفس سحقاً، إنها لنار معنوية تُفتِّت النفس تفتيتاً، وتحرِّقها تحريقاً، إنها لحال نفسيَّة ما لأحد عليها من صبر.

أفيدع هذا الرب الكريم ذلك الإنسان المريض دون علاج ومداواة؟.

أيترك الرحمن الرحيم ذلك المخلوق المعذَّب الضعيف دون أن يستر عنه ما هو فيه من آلام؟.

هنا وفي هذه اللحظة، وفيما الإنسان وقد بلغ به ألمه النفسي النهاية والذروة، تبدو له رحمة ربه الرحيم، وتُبَرَّزُ الجحيم للغاوين، تبرَّزُ لهم وقد تلظَّت نيرانها واشتد سعيرُها، فإذا بهذا الإنسان يتهافت نحوها كما يتهافت المرضى المتألمون في الدنيا على المستشفيات ودور العمليات، أو كما يتهافت الفَرَاش الضعيف على النار، وقد عبَّرت هذه السورة الكريمة التي نحن بصددها عن

هذا الحال، إذ وصفت وضْع امرأة أبي لهب، وقد اجتذبتها آلامها النفسية إلى النار بما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى:

﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾

**إذ الجيد:** هو العنق، **والحبل من المسد:** هو الحبل المتين المحكم الفتل.

فهذا الألم المعنوي الشديد الذي يلازم امرأة أبي لهب هو الذي يجرُّ بها إلى النار، فإذا هو كالحبل المتين، وإذا هي بسببه منجذبة جذباً قوياً إلى عذاب الحريق.

هذا وإنه لا بدَّ لنا قبل أن نختم تأويلنا لهذه السورة الكريمة من أن نسوق الكلمة التالية فنقول: ما أورد الله تعالى هذه السورة في كتابه الكريم، كما يفهم بعض العامَّة ليذمَّ أبي لهب وامرأته ويسبَّهما فيه، وما ساقها لينتقم فيها من أبي لهب الذي جعل يعارض رسول الله ﷺ، فإذا هي تزول بزوال أبي لهب وامرأته ولا يبقى لها مغزى يُنتفع به ويُرجع إليه، بل جعلها تعالى هدىً ونبراساً تدوم للبشر ما دامت الحياة على وجه الأرض.

لقد مات أبو لهب وخرج من الحياة، فكأن لم يغنَ فيها، لكنه ظلَّ رمزاً لكل امرئ يمرُّ بهذه الحياة ويخرج منها خاسراً لم يكسب شيئاً، وظلَّت امرأته رمزاً لكل معرض يجمع من الأعمال ما يشعل في نفسه ناراً معنوية تجرُّ به إلى النار وتجتذبه إليها، فإذا الشخصان المذكوران أبو لهب وامرأته رمزان يُتمثَّل بهما حالان من أحوال أهل الكفر والإعراض، وإذا الرمزان يجتمعان في المعرض عن الله، وإذا السورة الكريمة خالدة في معانيها، أنزلها الله تعالى لهذا الإنسان يتلوها فتكون له بها موعظة وذكر ورحمة من الله تعالى بهذا الإنسان وعطفاً عليه. قال تعالى:

{إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً}[1].

{وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلا خَسَاراً}[2].

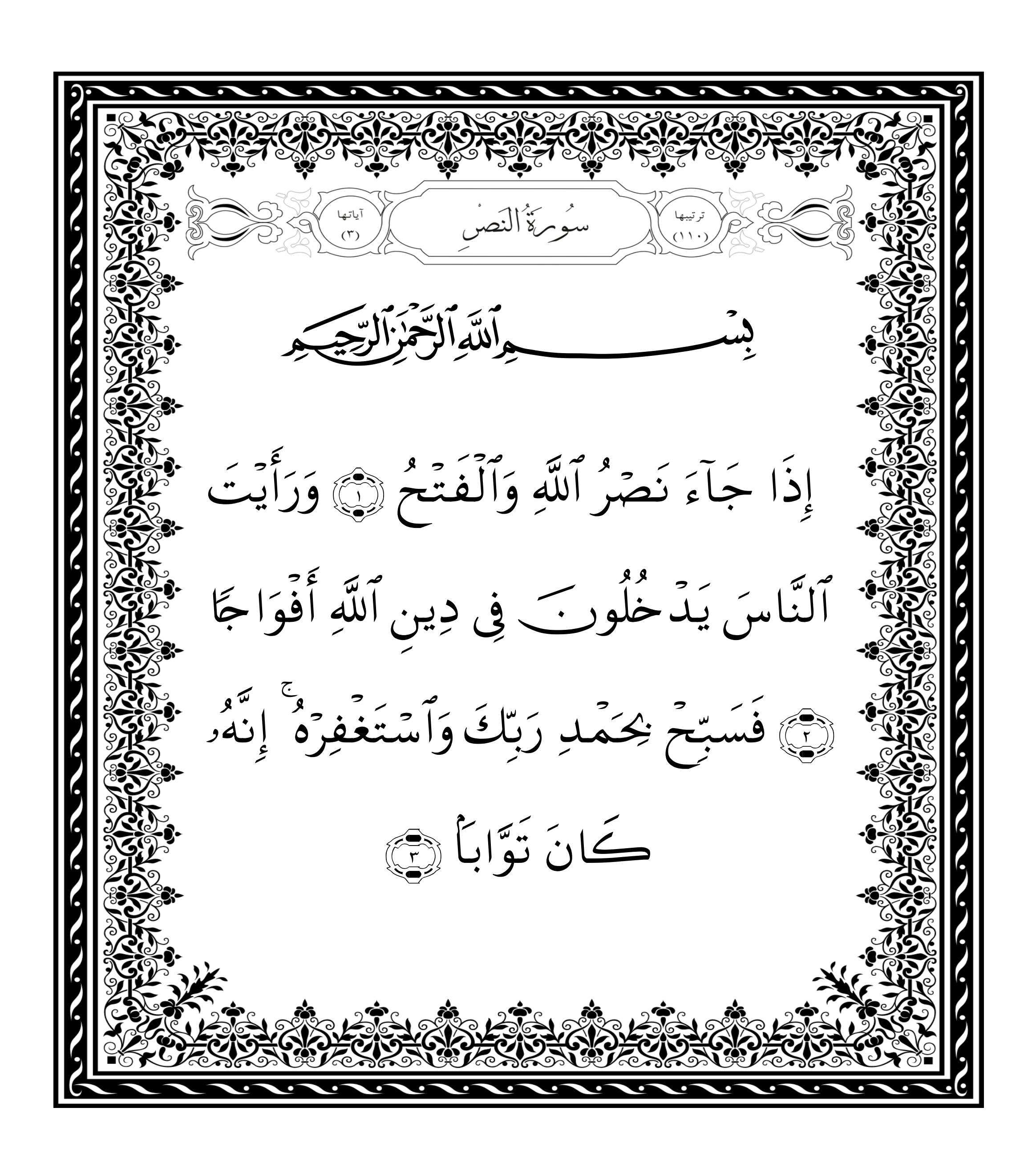
والحمد لله الذي ضرب بين المقبلين والمعرضين بباب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قِبَلِه العذاب

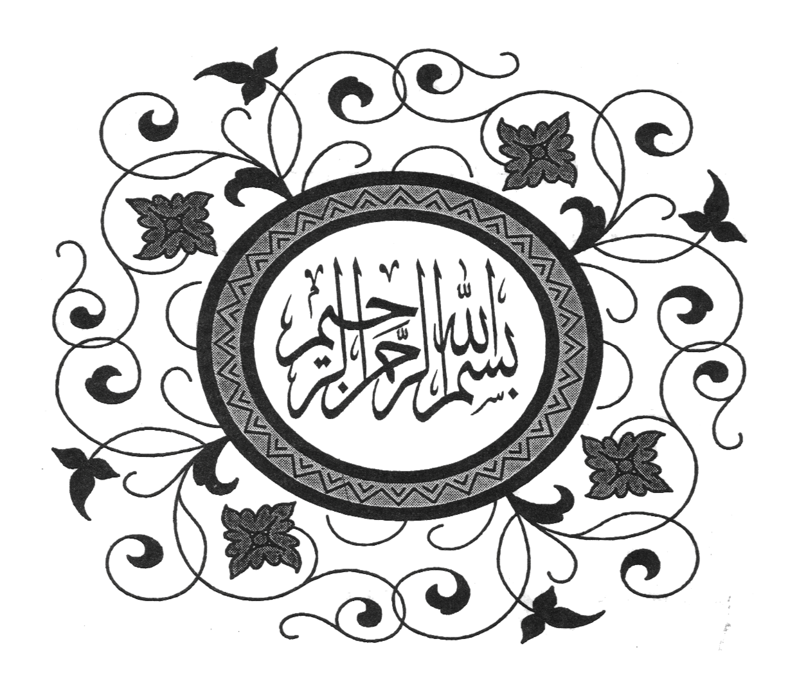
---

[1] سورة الإسراء: الآية (٩).

[2] سورة الإسراء: الآية (٨٢).


سورة النصر


ترتيبها (١١٠)
سُورَةُ النَّصْرِ
آياتها (٣)
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ
ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا
﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ
كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾



في هذه السورة الكريمة تعزية من الله لرسوله وبيان لفضله عليه، كما أن فيها تعريفٌ لنا بعطف الله تعالى وحنانه على خلقه، فالرسول صلى الله عليه وسلم لما حزِن على عمِّه أبي لهب حيث عارضه، وخسر ذلك الفضل الذي قد كان يناله بسبب إيمانه لو آمن، عزَّاه الله تعالى عن ذلك، وبيَّن له ذلك الفضل العظيم الذي تفضَّل به عليه، إذ أيَّده بنصره، وجعل دلالة الخلقِ وهدايتهم إلى طريق الحق بسببه، وبواسطته، ولذلك قال تعالى:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾:

**والنصر والفتح** ودخول الناس أفواجاً في دين الله نِعَمٌ كبرى أنعم الله تعالى بها على رسوله الكريم من بعد جهاد كبير ومعارضات قام بها أبو لهب وأمثاله في مكة، خلال مدة زادت على عشر سنين.

وبالحقيقة ما من نعمة أكبر على المؤمن مثل اهتداء الناس به إلى طريق الإيمان وفتح الخير على يديه، ولذا ذكَّر الله تعالى رسوله ﷺ بهذه النعمة وهذا الفضل المبين، ثم بيَّن له الطريق التي يجب أن يسلكها والتعاليم التي يجب أن يُطبِّقها ليرقى بهؤلاء المؤمنين ويسمو بهم إلى تلك المنازل العليا التي أعدَّها الله تعالى لعباده، لِيُتِمَّ نعمته عليهم وليفوزوا بما هيأه لهم من السعادة والخير.

**وتفصيلاً لما أوجزناه وزيادة في التوضيح نقول:**

(**النصر**): هو الفوز والغلبة، **والنصر**: أيضاً هو التأييد وحسن المعونة، يُقال: انتصر فلان على عدوه أي تغلَّب عليه وفاز في رده، والمراد **بنصر الله** هنا: أي معونة الله لرسوله بأن أظهر الحق على لسانه، وألهمه من البيان والدلالة ما يدفع به أقوال خصومه ويدحض حجج معارضيه وأعدائه.

والمراد **بنصر الله** تعالى أيضاً: أي معونة الله لرسوله إذ أمره بالهجرة إلى المدينة وجعل له فيها من المنعة والقوة وأيَّده وأيَّد أولئك المؤمنين من الأنصار والمهاجرين تأييداً ذُلَّتْ له رقاب المشركين، وانكسرت أمامه شوكة المعارضين. قال تعالى:

{..وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ}(١).

**والفتح**: هو الإظهار بعد غموض واستغلاق، والكشف والتعريف من بعد خفاء.

يُقال فتح الحاكم بين الخصمين بالحق، أي: أظهر الحق وكشفه فإذا هو واضح بيِّن لا غموض فيه، وفتح الله تعالى على فلان أي عرَّفه به وأطلعه عليه، وأظهره له.

والمراد **بالفتح**: تلك الهداية العالية والمعرفة التي فتح بها الله تعالى على الناس، وذلك الإيمان والعلم الذي تفتَّحت له قلوبهم لما جاءهم الرسول، **رسول الله الأمين** ﷺ، بما جاءهم به من الدلالة والبيان.

والمراد **بالفتح أيضاً**: ما عرَّف الله تعالى به رسوله الكريم من أصول، وما كشف له من خطط رافقه بسببها النصر، وحصل له معها الفوز والتأييد.

أما كلمة (**إذا**) الواردة في أول هذه السورة فهي أداة شرط، والشرط هو أن يتوقَّفْ حصول شيء على حصول شيء آخر كقولك:

إذا جاء زيد فأكرمه فالمجيء شرط لازم لحصول الإكرام، والإكرام متعلِّق بالمجيء ومتوقِّف عليه.

وتفيد (**إذا**) في أصل وضعها اللغوي الزمن المستقبل كما هو واضح في المثال الذي قدَّمناه، فإذا حصل المجيء في المستقبل ووقع حصل الإكرام.

وقد تأتي للزمن الماضي فيما إذا دلَّت القرائن على ذلك وأفاد سياق الكلام كقوله تعالى:

---

(١) سورة المنافقون: الآية (٨).

{وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}[1].

فالرؤية المذكورة في هذه الآية الكريمة، إنما وقعت قبل نزول الآية على الرسول ﷺ، وقد جاءت الآية مبيِّنة تلك الواقعة ومشيرة إليها.

وقد تخرج (**إذا**) عن الزمن الماضي والمستقبل وتأتي لتقرِّر ثبوت الأمر ووقوعه، وتأتي للحال كما في قوله تعالى في سورة الليل (١-٢):

{وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ، وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى}: ومنها نفهم معنى (**إذا**) الشرطية الواردة بهذه الآية الكريمة:

{إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً}.

فليس المراد من هذا أنَّ النصر والفتح سيحصل لرسول الله في زمن المستقبل، بل إنما وقع ذلك وحصل، والمراد تقرير الأمر وتذكير الله تعالى رسوله ﷺ بتلك النعمة الكبرى التي تفضَّل الله بها عليه.

﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً ﴾:

**والدين**: هو الشريعة والطريقة، والمراد بدين الله: طريق الحق الذي بيَّنه الله لعباده على لسان رسوله بما فيه من السعادة والخير للإنسان.

**والأفواج**: جمع فوج، **والفوج**: هو الجماعة والطائفة، والمراد بآية:

﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً ﴾:

أي: اذكر فضلي عليك في جعل هداية الناس على الحق على يديك، أما وقد حصل ذلك، فاسبح مسترسلاً في نعمة ربّك وفضله.

ويكون ما نفهمه من آية:

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً ﴾ .

---

[1] سورة الجمعة: الآية (١١).

أي: أما وقد حصل لك التأييد الإلّهي، فبيَّنت للناس ما ألهمك ربُّك من البيان، ودحضت حجَّة كل معارض، حتى أذعن لك الناس، وتفتَّحت قلوبهم للهدى والإيمان، ونصرك الله تعالى على معارضيك من أهل الكفر والضلال، وفتح عليك ذلك الفتح المبين، وانضمَّ إليك من انضم من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب الذين دخلوا في دين الله أفواجاً، وتفتَّحت قلوبهم جميعاً للهدى والإيمان، فسبِّح نفسك في هذا الفضل الذي تفضَّل به عليك. واسترسل في تذوُّق الإحسان الذي ساقه إليك وما عليك الآن إلا أن ترقى بهم وتسمو بنفوسهم فتسبِّحها بحمد الله، وتصطحبها معك تلك الصحبة النفسية في الإقبال على الله، وذلك ما أفادته كلمة:

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾:

**وتفصيلاً لمعنى هذه الكلمة وتبياناً لما نفهمه منها نقول:**

سَبَحَ في الماء بمعنى: عام فيه وانبسط، وسَبَحَ في السير: أي تقدَّم وبالغ، وفي الكلام: أكثر منه وأسهب، وفي الأمر: أمعن فيه واسترسل.

وإذا رأيت تعدية الفعل بالتضعيف وهو وجه من أوجه اللغة شدَّدْت الباء فقلت: سبَّحَ فلان فلاناً، أي: جعله يسبح في أمر من الأمور.

وقد جاءت الآية الكريمة مبيِّنة لرسول الله ﷺ، المجال الذي يجب أن يُسبِّح الناس فيه إذ قال تعالى:

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ . . ﴾ .

**والحمد**: هو ما ينشأ في النفس من الرضا تجاه المحسن بسبب ما قدَّمه من الخير وما ساقه من الفضل والنعمة، والله تعالى إنما يطلب من رسوله الكريم أن يُبيِّن لمن اتَّبعه من المؤمنين فضل الله تعالى الكبير على عباده بجميع ما يسوقه لهم وسائر ما يعاملهم به.

فالهم والغم، والمرض والفقر، والشدّة والعسر، وعلى العكس الفرح من بعد الكرب، والصحة من بعد المرض، والغنى من بعد الفقر، والرخاء واليسر من بعد الشّدة والعسر، وإن شئت فقل ما من حال من الأحوال ولا أمر من الأمور التي ينزلها الله تعالى لهذا الإنسان، سواءً سرَّته أم ساءته، أفْرحته أم أحزنته، إلاَّ وهي من ربِّك الذي أنشأك وربَّاك وأمدَّك بما أمدَّك به ممَّا يلزمك في هذه الحياة، أقول: ما كل ذلك من ربِّك إلا محض فضل ورحمة وإحسان.

أرأيت إلى الأم في تربيتها طفلها الصغير، إنها تشدُّ عليه تارة وتلين أخرى، وهي تعطي وتمنع، وتبتسم وتقطب، وتسقي الدواء المرّ الكريه والشراب السائغ اللذيذ، إلى غير ذلك من الأمور المختلفة مظاهرها، المتعاكسة أوضاعها، لكنك إذا رجعت إلى جميع ما تعامل الأم صغيرها وجدت ذلك كله مصطبغاً بصبغة من الحنان والرأفة ممزوجاً في العطف والرحمة، حتى إنه إذا نظرت وتعمَّقت لتستوي لديك الشدّة واللين، وكذلك العطاء والمنع، والابتسام والتقطيب.

إنك ترى ذلك من الأم محض عطف ورحمة وليس يساورك في ذلك أدنى شك وارتياب، إن ثقتك برحمة الأم واطمئنانك إلى عطفها، يجعلك تُؤَوِّل جميع ما تُعامل به طفلها تأويلاً حسناً، وإنك لَتُقدِّر عملها دوماً وتحمدها عليه، وكالأم الأب الناصح العاقل، والمعلِّم الطيب المخلص، والطبيب الإنساني الماهر، إنك لتستسلم إلى هؤلاء جميعاً وتحمدهم على كل ما يقومون به وتطمئن إلى جميع ما يفيضون فيه، وإذا كان هذا حالك مع الأب والأم والمعلِّم والطبيب، وكانت هذه ثقتك وحسن ظنك بهؤلاء، وما هؤلاء إلا بشر مثلك فما ظنُّك بربِّ العالمين وهو الذي خلق الآباء والأمهات أودع في قلوبهم ما أودعه من عطف ورأفة ورحمة وحنان، حتى إنَّ جميع ما نراه من إحسان وجميع ما نلقاه من الناس من لطف وعطف وإكرام في هذه الحياة، كل ذلك أصله منه تعالى وجميعه أثر من آثار فضله ورحمته.

وإذا كان من الواجب علينا أن نشكر الآباء والأمهات، فالحقيق بالشكر أولاً هو الله تعالى الذي صدر عنه ما صدر من خير وأجرى ما أجرى إلينا من إحسان، فلْنحمد الله تعالى حقَّ الحمد ولنُسبِّح نفوسنا دوماً بحمده، فله الحمد وحده وهو المحمود على كل حال.

وكلمة ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ. .﴾: تطلب من رسول الله ﷺ، أن يُبيِّن للناس أن الله سبحانه لا يريد لعباده إلا الخير في الحال والمآل وأن يُذكِّرهم بعظيم عطفه تعالى وبالغ فضله على هذا الإنسان، لا بل على سائر المخلوقات، وهنالك وبمثل هذا التذكير والبيان وهذا التعريف والتسبيح، تطمئن الأنفس إلى رحمة الله تعالى وحنانه وتسبح سبحاً طويلاً في مشاهدة فضله، وتسترسل في رؤية عطفه وإحسانه.

ويتكرر ذلك من الإنسان ويتواصل ويتكرر، حتى أن النفس لتضحى في حال وقد استغرقت مُتنعِّمة فيما تراه من برِّ هذا الخالق العظيم، ولطيف عناية هذا الرب الكريم إنها لتسبح حقاً في

ذلك وما أجمل هذا السبح وما أسعد حال صاحبه، وما كل ذلك إلا بسبب التذكير الذي يطلب الله تعالى من رسوله الكريم أن يذكِّر العباد به، وذلك طرفاً مما نفهمه من كلمة ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ . . ﴾.

وكلمة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، تقول مخاطبةً رسول الله ﷺ:

أما وقد جاءك النصر والتأييد وفتح الله عليك بما فتح من اهتداء الناس بك ودخولهم أفواجاً في هذا الدين، فما عليك الآن إلا أن تُذكِّر عبادي بنعمتي عليهم وكبير عنايتي بهم، وهنالك تسبح نفوسهم في شهود فضلي ولطفي وتستغرق في رؤية برّي وإحساني، وتكون إذ ذاك قد سبَّحتهم حقاً بحمدي، وعرَّفتهم بطرف من أسمائي.

**ولكن ما هو أثر هذا السبح والتسبيح، وما هي نتائجه في نفس هذا المؤمن الذي عرف ربَّه وأقبل بنفسه عليه؟.**

هذا ما نريد أن نبحثه الآن فنقول: لا ريب أن هذا السبح في مشاهدة فضل الله ونعمه، والإقبال المبني على ثقة العبد بعطف خالقه وحنانه، يجعل النفس بسبب إقبالها على الله تعالى، وإن شئت فقل: بسبب صلاتها وصلتها بربِّها تكتسب منه تعالى كمالاً، فتنطبع فيها انطباعات عالية من الرأفة والرحمة والعلم والحكمة واللطف والعطف، إلى غير ذلك من الكمالات الإلٓهية، وبهذا يغدو ذلك العبد المؤمن بتسبيحه بحمد ربه، امرءاً ذا نفس متحلِّية بحلية الكمال، وإنساناً عالياً لا كغيره من بني الإنسان.

**ونضيف إلى ذلك فنقول:**

إلى جانب هذا الكمال الذي يكتسبه هذا الإنسان من خالقه ينمحي من النفس في ساعات إقبالها ما بها من الكدورات، ويزول ما علق بها من أدران، وذلك مجمل ما نفهمه من كلمة **(واستغفره)**. واستغفار رسول الله ﷺ لمن معه من المؤمنين أثر من آثار تسبيحه إيَّاهم بحمد الله ونتيجة من نتائج إقبالهم على الله.

ونفصِّل الآن بعض التفصيل ونبيِّن لك ما نفهمه من المعنى مُمَهِّدين بشيء من الشرح اللغوي فنقول:

**الاستغفار**: هو طلب المغفرة، والمغفرة: هي الستر والتغطية، والمغفرة أيضاً تأتي بمعنى الإصلاح أي محو الخلل وإزالة الفساد، يقال: غفر فلان الشيب بالخضاب، أي غطَّاه وستره، وغَفَرَ الرأسَ بالمغفر، أي: غطَّاه. وغفر أيضاً بمعنى: أصلح. وغفر الأمر أي: أصلحه بما ينبغي أن يصلح به، وغفر الله للمسيء، أي: أصلح له نفسه وشفاها مما علق بها من الأدران فغدت طيِّبة طاهرة. وهكذا فالمغفرة هنا إنما جاءت بمعنى: إصلاح النفس ومحو ما فيها من خلل وفساد، وبما أن صلاح النفس وشفاءها مما بها من علل وأدران، لا يكون إلا بإقبالها على الله وصلتها به، لذلك يطلب تعالى من رسوله الكريم أن يُعرِّف العباد بربِّهم وأن يُسبِّحهم بحمده ليؤمنوا به ولتحصل لهم تلك الصلة به تعالى، وهنالك تحصل لهم المغفرة ويزول من أنفسهم ما علق بها من دنيء الشهوات وما خالطها من علل وأدران.

فيكون معنى (**استغفره**) هنا: أي اطلب من ربِّك أن يغفر للذين آمنوا واتبعوا سبيله فيُصلح لهم نفوسهم، مما كان قد علق بها من دنيء الشهوات، وأن يشفيها من عللها وما فيها من أمراض.

وهنا لا بد لنا وبناءً على ما قدَّمناه من أن نقف قليلاً فنقول:

ليست المغفرة كما يفهم بعض العامَّة صفحاً وعفواً عن مؤاخذة المسيء بسبب ما صدر منه من خطايا وآثام، إنما المغفرة شفاء النفس وصلاحها، وبما أن هذا الشفاء لا يكون كما ذكرنا من قبل إلا بإقبال العبد على الله، لذلك لا بد لك من الصلة النفسية بخالقك ولا بد لك من الإقبال عليه تعالى.

والمرشد الناصح والدليل الحق، هو الذي يرشدك إلى هذا الطريق، ويوضِّح لك خطواته ويدلُّك على الأصول والقواعد التي سنَّها الله تعالى، والتي بتطبيقها تحصل المغفرة ويكون للنفس الشفاء والصلاح، أما الذي يدعك تتخبَّط فيما أنت فيه من المعاصي والآثام ثم يُمنِّيك بالأماني الباطلة، ويوهمك بأنه سيتوسَّط لك وسيطلب لك الصفح من الله، فقد غشَّك وغرَّر بك، وإنك إذا رجعت إلى كتاب الله تعالى وقرأت قوله عزَّ وجلّ:

{لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً}[1].

{أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ}[2].

{أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ}[3].

أقول: إنك إذا رجعت إلى هذه الآيات الكريمة وأمثالها وجدت أن الأمور ليست بالأماني ولا الوساطات، بل كل امرئٍ بما كسب رهين، وكل امرئٍ مجزيٌ بعمله.

{فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ}[4].

{وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ}[5].

وهكذا فللمغفرة أصول ثابتة وقوانين، وخلاص النفس مما علق بها من العلل ودنيء الشهوات لا يكون إلا بتطبيق هذه الأصول واتِّباع هذه القوانين.

والذي يريد أن يستغفر لك الاستغفار الحق إنما يرشدك لهذه الأصول والقوانين قال تعالى:

{قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[6].

والآن وبعد أن بيَّنا لك ما بيَّناه عن التسبيح بحمد الله والاستغفار، لا بد لنا من أن نبيِّن آثار هذا الاستغفار ونتائجه في النفس فنقول:

أما وقد عرفنا أن أثر الصلة النفسية بالخالق عزّ وجل، وما ينتجه الإقبال على الله من غفران، وإن شئت فقل من طهارة النفس وخلاصها مما بها من أدران.

نتساءل هل يقف الإنسان عند هذا الحد لا يعدوه؟. أم أن له في هذا المجال خطوات وفي ذلك السلوك السامي درجات ومقامات؟.

**وفي الجواب عن هذا نقول:**

---

[1] سورة النساء: الآية (١٢٣).

[2] سورة الجاثية: الآية (٢١).

[3] سورة الزمر: الآية (١٩).

[4] سورة الزلزلة: الآية (٧-٨).

[5] سورة الجاثية: الآية (٢٢).

[6] سورة يوسف: الآية (١٠٨).

**الشفاعة:**

إن النفس البشرية بفطرتها مجبولة على تقدير الكمال لكن هذا التقدير والتعظيم يتطلَّب من النفس عيناً تستطيع أن ترى بها وتشاهد، إذ بعين الرأس نرى الأشياء الظاهرة بواسطة الأنوار المادية كنور الشمس والقمر والكهرباء ووسائط الإنارة.

أما عين القلب، قلب النفس، فإنما ترى بنور الله ونور رسوله، نور دائمي أبدي متعاظم ما هذه الأنوار المادية تجاهه إلا أنواراً بسيطة ضئيلة تكاد تجاهه لا تكون شيئاً مذكوراً، وهي أثر بسيط من أنوار الخالق العظيم جلَّت عظمته وعَظُم سلطانه وباهر لألاء سناء نوره المدسَّم بالغبطة الإلٓهية والشفاء النفسي العذب الطيِّب المذاق. فإذا أقبلت النفس على الله بالصلاة واصطبغت بالكمال وتحلَّت به، فقد أضحت لها هذه الإمكانية وتفتَّحت فيها تلك العين التي تُمكِّنها من رؤية الكمال ومشاهدته، وينظر هذا المؤمن فيمن حوله وتقع عينه على أهل الكمال ويرى ما هم فيه من مسايرة له في هذا الطريق السامي فيحبُّهم، وكلَّما رأى أحداً أكثر منه في الكمال سبْقاً كان أكثر له تقديراً وتعظيماً وأكثر له حبّاً وعشقاً، وحيث إن رسول الله ﷺ هو أسبق المؤمنين كافة في هذا المضمار، وحيث إنه ﷺ سيّد الكاملين قاطبةً وأعلاهم مقاماً وأقربهم إلى الله زلفى، لذا تجد هذا المؤمن بما اصطبغ به وبما اكتسبه من الكمال من ربِّه يحبُّ رسول الله ﷺ ويقدِّره ويعزِّره ويوقِّره، فليس من مخلوق لديه أرفع منزلة ولا أسمى مقاماً ولا أجلّ شأناً من رسول الله ﷺ، فإذا سمع بذكره هاجت كوامن المحبّة في قلبه وسَرَتْ كوميض البرق نفسه نحو رسول الله ﷺ، فإذا هي مصاحبة له ومرافقة لنفسه الشريفة، وأحوال المحبِّين أعظم من أن تُشبَّه بشيء أو تُمثَّل به.

وما يزال هذا المؤمن يتدرَّج في حبِّ رسول الله ﷺ، وما تزال صلته به ﷺ وصلاته عليه في ازدياد وارتقاء، وما يزال مُتقدِّماً في طريق التقدير والتعظيم والإجلال، حتى يصل لحال يكون معه أهلاً لأن يدخل بمعية رسول الله ﷺ على الله، وهنالك وفي مثل هذه اللحظة يرى بنور رسول الله، وإن شئت فقل بمن أرسله الله تعالى سراجاً منيراً ورحمةً للعالمين، نور الله الذي به يرى طرفاً من أسماء الله فيهيم بما رأى حبّاً ويخرّ في حضرة الله تعالى ساجداً ويفنى في رؤية الأسماء الإلٓهية فناءً كلِّياً، إنه يرى اسم **الرحمن** وقد غمر برحمته التي لا نهاية لها الكائنات

جميعها، ويرى اسم **الرؤوف** وقد أحاطت رأفته بالمخلوقات كلّها، ويرى من اسمائه تعالى **الحكيم والعليم والعلي الكبير**، وغير ذلك من الأسماء ما يجعله يستغرق بها استغراقاً، ويستسلم لهذا الرب الرؤوف الرحيم استسلاماً كلّياً، وتكون صلته برسول الله ﷺ وصلاته عليه قد أوصلته إلى هذا.

فلعمري تلك هي الشفاعة الحقّة، إنها شفاعة حب وصحبة نفسية لتلك النفس العالية الكريمة مأخوذة من **الشفع**: وهو أن يقارن شيء شيئاً ويزاوجه ملازماً إياه، وإلى هذه الصلة النفسية برسول الله ﷺ وإلى هذه الشفاعة الحقَّة وهذا الارتباط أشارت إليه الآية الكريمة:

{إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}[١].

وأنه لولا تلك الصلة والصحبة النفسية برسول الله ﷺ، ولولا الصلاة عليه لما كان لهذا المؤمن هذا السمو والعروج ولما حصلت له هذه الرؤية والشهود ولما سلَّم لله تسليماً.

ويرجع المؤمن من تلك الرحلة النفسية وقد أضاء في نفسه قبس من نور الله أوقده في قلبه حبّه لخالقه، بسبب ما رآه من كمال الله تعالى، وما شاهده من عطفه وحنانه ورأفته ورحمته بسائر عباده، والحق أن المحبة لا تكون إلا بعد **الشهود والرؤية**، ولكن أتدري ماذا يفيد المؤمن من هذا النور الإلٓهي الذي سطع في قلبه؟.

إنه يرى بهذا النور الحقائق المستكنة من وراء الصور فإذا هو لا يغتر بمظاهر الأشياء ولا تخدعه صور الرجال، لقد تفتَّحت منه عين البصيرة وأضحى ينظر بنور الله، فإذا هو فاروق يفرِّق بين الخير والشر، ويميِّز الحق من الباطل، يرى الخير خيراً فيحبّه ويهواه ويميل إليه، والشر شرّاً فيعافه ويأنف منه ويزهد فيه، وتلك هي المنزلة السامية التي يجب أن يتبوَّأها كل إنسان وتلك هي التقوى التي حث الله تعالى المؤمنين وحضَّهم عليها. قال تعالى:

{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[٢].

---

[١] سورة الأحزاب: الآية (٥٦).

[٢] سورة الحديد: الآية (٢٨).

{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}[1].

**التقوى:** وهكذا فالتقوى إنما هي استنارة بنور الله وأثر من آثار استشفاعك برسول الله ودخولك بمعيته ﷺ في حضرة الله، لقد أضحت نفسك مستنيرة بنور الله وكان هذا النور الإلٰهي وقاية لك من السقوط في مهاوي الضلال والوقوع في المهالك والشرور، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور، وذلك كله إنما توحي لنا به كلمة: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾.

**ولكن كيف يكون الاستغفار من رسول صلى الله عليه وسلم للناس؟.**

أقول: ليس ذلك الاستغفار استغفاراً قولياً، بل هو حال من الأحوال النفسية. فالرسول ﷺ الذي أقبل على ربِّه أعظم وأسمى إقبال، هذا الرسول الذي يتوارد عليه أعظم تجلٍّ من الله، وأشد نور وإمداد، إذا توجَّه بنفسه لأصحابه الذين أقبلوا عليه وصدَّقوا برسالته وبما جاءهم به عن الله، فهنالك يسري ذلك النور الإلٰهي، بواسطة الرسول إلى أصحابه والمؤمنين به، ويكون الرسول العظيم بهذا الحال وسيطاً بين الله وخلقه، ووسيلة تخفِّف من شدة ذلك التجلي، فتتمكن الأنفس من تقبُّله وتحمُّله. وهذه هي **حقيقة الشفاعة**.

ولو أن الله تعالى تجلَّى مباشرة على قلوب الناس، ومن دون وساطة الرسول ﷺ، لتصدّعت نفوسهم، فلم تقوَ على تحمّل ذلك التجلي، ولصُعِقوا وانجذبت عقولهم من ذلك النور.كما صُعِق أصحاب سيدنا موسى الذين لم يقدِّروه ﷺ بالميقات. **وربُّك حكيم**، ولذلك انتخب الرسل الذين كانوا أشد الناس حبّاً له، وأكثرهم تحمُّلاً لنوره، وسطاء بينه وبين عباده. ومن رحمة الله وحنانه على خلقه أن أمر الرسول ﷺ، بأن يتَّجه بنفسه الشريفة إلى الذين آمنوا فيكون سبباً في سريان ذلك النور الإلٰهي إلى قلوبهم، ووسيطاً بينهم وبين ربِّهم، وهنالك وبهذا النور تحصل لهم التزكية والمغفرة وينالون الشفاء النفسي، قال تعالى:

{..وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[2].

---

[1] سورة الأنفال: الآية (٢٩).

[2] سورة التوبة: الآية (١٠٣).

ونتابع الآن التأويل وقد وصلنا منه إلى كلمة:

﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾

فنقول:

**التوَّاب**: مشتقة من تابَ، يُقال: تاب العبد إلى ربِّه، أي: رجع عن معصيته وعاد إلى طاعته، وتاب الله على العبد، أي: رجع بنعمته عليه.

**والتوَّاب**: اسم من أسماء الله وهي تعني كما نفهم: المبالغة في التوبة على العباد، يسوق لهم تعالى دوماً من الأدوية والعلاجات ما يكون سبباً في رجوعهم إليه وزيادة قربهم منه ليظفروا بالسعادة وينالوا ما أعدَّ لهم من النعيم والخيرات. وكلمة (**كان**): تفيد أن هذه الصفة من صفات الله الذاتية، التي اتَّصفت بها ذاته العليّة. وهذا يعني أنه لا أوَّلَ لهذه الصفة ولا حدَّ لها وهي لا تقتصر على زمان ومكان ولا على فئة من الناس، بل تشمل كل الخلق.

ويكون ما نفهمه من آية: ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾:

أي: إن الله لا يتخلّى أبداً عن عباده، فمهما أعرض العبدُ، ومهما كفر واستكبر، ومهما عصى وأخطأ لا يتركُهُ ربُّهُ، بل يسوق له من الشدائد تارةً، ومن البرِّ والإحسان تارةً، مما يكون مذكِّراً له فضلَ ربّه، وداعياً يدعوه إلى الرجوع والعودة إلى كنف سيِّده وخالقه ومولاه، ليتمتَّع بفضلهِ وليكون أهلاً لتذوُّق عالي برِّه، وكمال إحسانه.

وبالحقيقة ما تزال العناية الإلّهية محيطة بهذا الإنسان وما تزال يد الرحمة والحنان تقلِّب المخلوق من حال إلى حال، فمن مرض إلى صحة، ومن صحة إلى مرض، ومن غنى إلى فقر، ومن فقر إلى غنى، ومن يسر إلى عسر، ومن عسر إلى يسر، وإن شئت فقل:

ما تزال هذه اليد الرحيمة تُطبِّق بحكمتها وعلمها وعظيم رأفتها ورحمتها على الإنسان شتى العلاجات، وما تزال تسوق له مختلف العبر وتواجهه بالكثير من الأحوال حتى يتوب ويؤوب أو يصل إلى آخر مرحلة من مراحل الحياة، فإن تاب هذا العبد وأناب فقد ظفر بالسعادة وفاز. فإن لم يتب بدنياه علَّه يتوب ويؤوب إلى ربِّه ويكف عن إعراضه وأمراضه في البرزخ بعد أهوال وأهوال وإلا فهناك النار تطفئ لهيب إعراضه ومزيد خسرانه وعماه، ولعلَّه بعد علاجات رهيبة يخرج من النار.

«**يخرجُ منَ النار منْ كانَ في قلبِه مثقال ذرَّة من إيمان**»[1] صدق رسول الله ﷺ. قال تعالى:

{ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا..}[2].

أرأيت إلى بني إسرائيل لما أعرضوا عن الحق، وحادوا عن أوامر الله تعالى، كيف سلَّط الله تعالى عليهم فرعون وما زال يسومهم سوء العذاب حتى تابوا ورجعوا إلى الله، وكذلك إخوة يوسف عليه السلام.

وكالأمم والجماعات والأفراد والأشخاص، لكل امرئٍ عند الله تعالى دواؤه وعلاجه كلٌّ على حسب حاله وما استقر في نفسه، وجميع ما ينزله الله تعالى لعباده إن هو إلا محض فضل وعناية وإحسان، إنه يتوب تعالى على العبد ليتوب العبد ويصل إلى السعادة والخيرات.

**والتوَّاب**: سبحانه وتعالى هو الذي يؤوب على العبد التائب بمجرد تغييره نيته عن سلوك السوء بتوبته الصادقة بالنية فقط فيؤوب عليه بالخيرات، بالصحة والجاه والمال والعز. والتوبة الصحيحة تمحو الخطايا.

ولك من قصة أصحاب الجنة وقد فصَّلتها لك (**سورة القلم**)، ومن قصة صاحب الجنَّتين وقد حدَّثتك عنها (**سورة الكهف**) ما يجعلك تطمئن إلى رحمة الله تعالى، وتركن إلى عنايته بهذا الإنسان، لقد كان من نتائج معاملة الله تعالى لمن ذكرهم القرآن الكريم في هاتين القصتين، أن تابوا جميعاً ورجعوا إلى الله، وتلك هي معاملة الله تعالى مع سائر عباده ومع كل إنسان.

وهكذا فالله تعالى إنما يطلب في هذه السورة من رسوله الكريم، أن يأخذ بأيدي المؤمنين الذين دخلوا في دين الله أفواجاً فيسبِّحهم بحمد ربهم تسبيحاً تحصل لهم معه المغفرة والسعادة، تسبيحاً ينتهي بهم إلى استشفاع نفوسهم بنفس رسول الله ﷺ ودخولها بمعيَّته ﷺ في حضرة الله حيث الشهود العالي للأسماء الإلّهية والوصول إلى التقوى ورؤية الحقائق بنور الله.

هذا وإذا سبَّحت نفسك بحمد الله وحصل لك الدخول بمعيِّة رسول الله على الله، لتصل إلى تلك المشاهدة السامية، فترى أن الله تعالى ما عاملك بجميع ما عاملك به إلا لتتوب وتؤوب

---

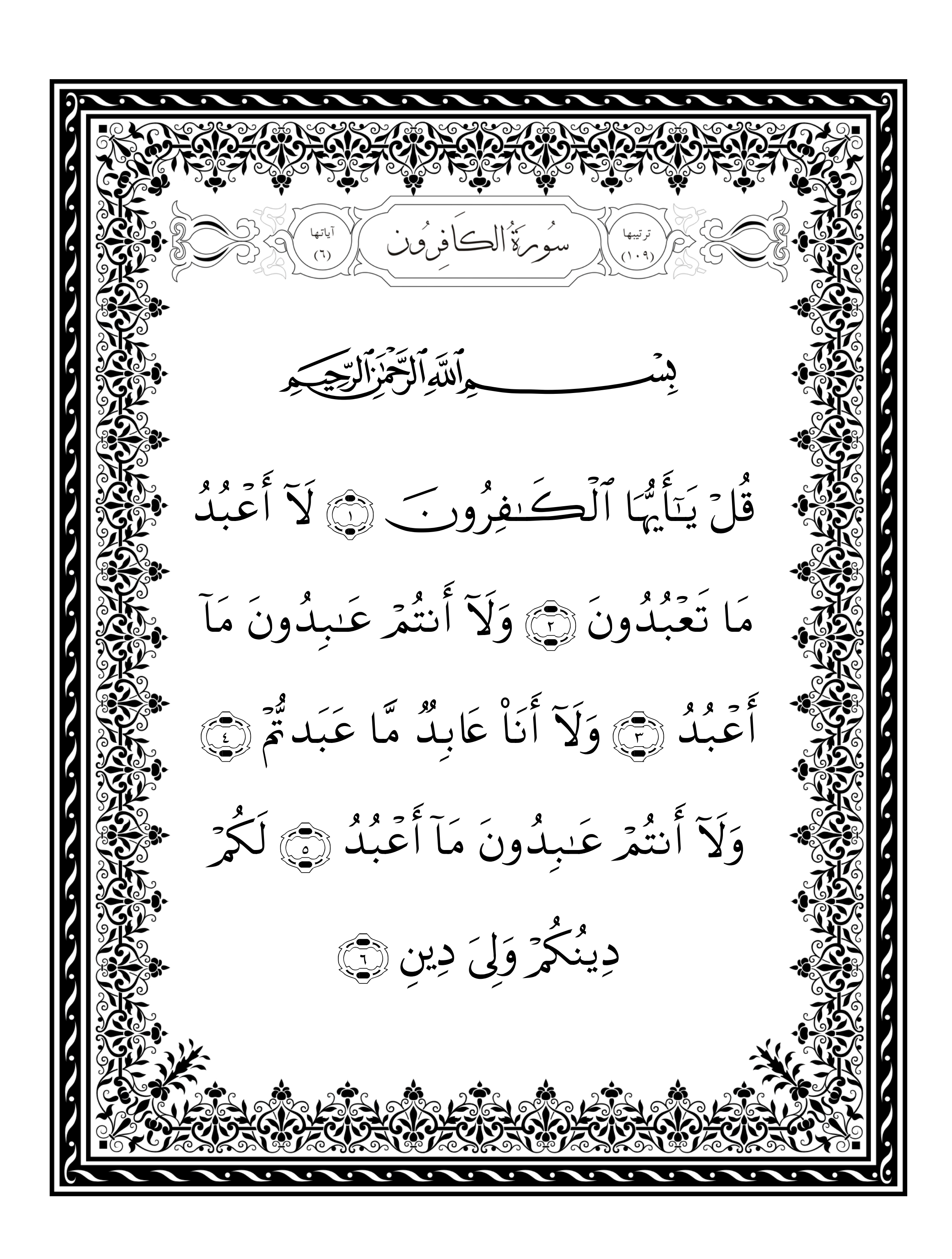
[1] مُسند الإمام أحمد ج٣ ص١١٦.

[2] سورة مريم: الآية (٧٢).

وتصل إلى ما وصلت إليه من سعادة ونعيم، هنالك تدرك طرفاً من معنى كلمة (**إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً**) وتعلم أن الله تعالى **عليم حكيم** وأنه سبحانه هو **التواب الرحيم**.

والحمد لله الذي أنزل على عبده هذا البيان

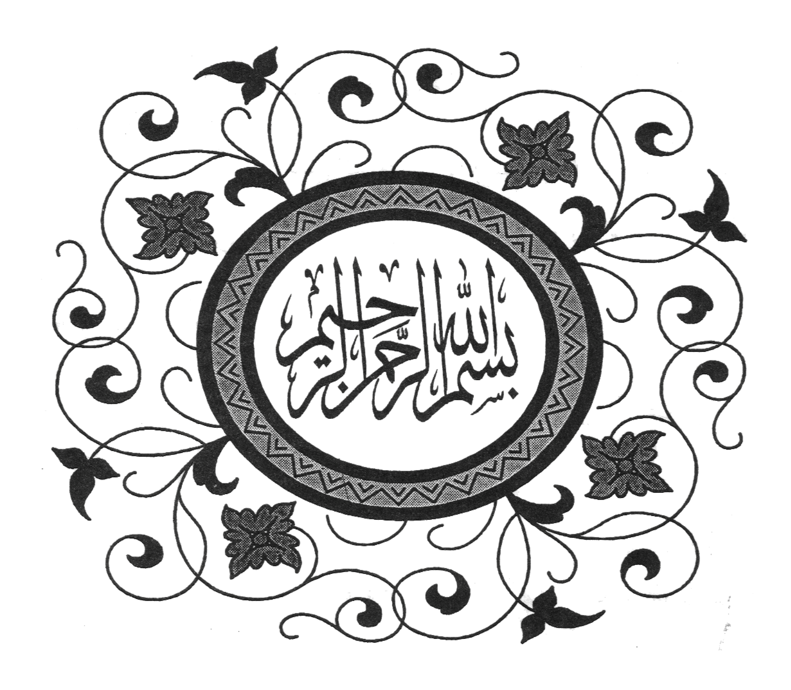

سورة الكافرون



ترتيبها (١٠٩) سُورَةُ الكَافِرُون آياتها (٦)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ
مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ
أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾
وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ
دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾



بعد أن بيَّن الله تعالى في سورة النصر ما بيَّنه للمؤمن من استغفار رسول الله ﷺ له، وحسن عناية الله به، وكمال عطفه عليه، ذَكَرَ لنا في هذه السورة ما يكون عليه حال المؤمن المقبل بسبب إقباله، وحال الكافر في كفره وإعراضه.

فالمؤمن لا يواقع الشرَّ، ولا يقارف المعاصي، ما استمرَّ على إقباله، والكافر يظلُّ متلبساً بالمعاصي، ولا ينزعُ عن الشرِّ ما دام مقيماً على كفره وإعراضه، ولذلك قال تعالى:

﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾:

**والكَفر والكُفر**: بفتح الكاف وضمِّها مصدران تقاربا في المعنى تقاربهما في اللفظ والمبنى، يجمع بينهما في معناهما الستر والتغطية، وإن كان الأول يختصُّ بالأشياء المادية، كما يختص الثاني بالأمور المعنوية.

يُقال: كَفَرَ الزارع الحبّ بالتراب كَفْراً بفتح الكاف: أي ستره وغطَّاه، وكَفَرَ العشب الأرض: أي غطَّاها بخضرته، وكَفَرَ الليل المدينة: أي سترها بظلمته، وكفَّرَ فلان عن ذنبه: أي: قام بعمل طيّب من صدقة أو معروف فكانت رؤية النفس لهذا العمل الطيب سبباً في ستر الخطيئة والذنب، ولذا أمر الشارع المؤمن إذا بدرت منه بادرة خطأ أو تقصير أن يُكفِّر عن تقصيره بأن يتصدَّق بصدقة أو أن يُباشر صوماً.

وبالحقيقة من قوانين النفس البشرية ومن سننها التي فطرها الله تعالى عليها أنها لا تستطيع أن تقبل على الخالق جل جلاله ولا على أي مخلوق ما دامت ترى تقصيرها وإساءتها يحجبها الذنب وتقع في البعد ويحول الخجل بينها وبين من أساءَتْ إليه، أمَّا إذا هي أصلحت عملها وأتبعت الإساءة بالإحسان فهنالك يزول الخجل وتتولَّد الثقة برضاء الله عنها، فإذا الإنسان برؤيته ما قام به من إحسان لا يعود يرى الذنب والتقصير، لقد وقف الإحسان أمام الذنب وستره فإذا الإنسان لا يرى إلا إحسانه ومعروفه، وذلك هو التكفير عن السيئات لا يكون إلا بالأعمال الصالحة والإحسان.

{..وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً}[1].

{..فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ}[2].

وأشار ﷺ إلى ذلك في وصية يوصي بها أحد أصحابه إذ يقول له ﷺ:

«**وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا**»[3].

أما وقد تبين لنا طرفاً من المعنى بما عرضناه من أمثلة بيَّنا بها أصل الوضع اللغوي، فلنبدأ بتأويل السورة الكريمة ولنبيِّن المراد من الكُفر بضم الكاف فنقول:

**الكافرون**: جمع كافر، والكافر على حسب الاشتقاق العرفي اسم فاعل بمعنى، الساتر الذي ستر عن نفسه رؤية الإحسان الإلّهي بما ظنَّه بربِّه من الظن السيِّء، فكان ظنُّه السيء ساتراً ومانعاً يحول بينه وبين رؤية الفضل والنعمة، وبالتالي سبباً في بعده عن خالقه وعدم تذوُّقه طعم الإيمان وحلاوة القرب من الله. ومن هنا يتبيَّن لنا أن الكُفر ليس معناه نفي وجود الخالق وإنكاره، فقد يكون المرء مقرّاً بوجود خالقه ومربّيه ومعترفاً به، ويكون مع هذا الإقرار كافراً.

أرأيت إلى إبليس لقد كان من الكافرين وهو أول كافر، وأعظم كافر وهو مع ذلك مقرّ بوجود خالقه وربّه وصرَّحت الآيات الكريمة بهذا تصريحاً كما في آية:

{قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ}[4].

---

[1] سورة الطلاق: الآية (٥).

[2] سورة آل عمران: الآية (١٩٥).

[3] مسند الإمام أحمد ج/٥ ص/١٥٣.

[4] سورة ص: الآية (٧٦).

ففي هذه الآية يعترف إبليس مقرّاً بالخالق، وكما في آية:

{قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ}[1].

ففي هذه الآية يعترف إبليس مقراً بربّه، وكما في آية:

{وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[2].

وأنت ترى من خلال هذه الآية، أن إبليس لما رأى التأييد الإلّهي للمؤمنين بنزول الملائكة يضربون أعناق الكافرين، نكص على عقبيه متراجعاً خائفاً من الله، لكن الذي جعل إبليس كافراً وسَبَّبَ له ذلك البعد عن الله، والحرمان من الدخول في حضرة الله، ذلك الظن السيِّء الذي ظنَّه بربِّه، فهو على حسب ما أشارت إليه الآيات السابقة يظن أنَّ الله تعالى أغواه وهو يظن أن الله لا يريد له الخير، ويظن أنَّ الله تعالى لم يُعطه ذلك المقام الذي أعطاه لآدم عليه السلام حرماناً له وغمطاً لحقّه، إنه يرى أنَّه خير من آدم وأنَّه كان يستحق أن يُعطى مقام الخلافة لكنّ الله فضَّل آدم عليه وجعله خليفةً في الأرض. وقد كان من نتائج هذه الظنون السيئة التي ظنَّها إبليس بربِّه أن تباعدت نفسه عن الله محتجبة عن الإقبال على الله، وقد كان من نتائج ذلك أنه وقف يُناصب بني آدم العداء، يريد إغواءَهم وإيقاع الشر بهم ظانّاً أنَّ له تصرُّفاً وفعلاً، وبذلك قرن الشرك إلى كُفره، غير عالم أنَّ الفعل كله بيد الله وأنَّه لا حول لأحد ولا تصرُّف إلا بالله تعالى ومن بعد إذنه. ذلك بعض ما نراه من كفر إبليس، وذلك هو سبب بُعده وبغضه. وكذلك اليهود الذين كفروا بربّهم وأنكروا فضله وأساؤوا الظن به، إذا أنت رجعت إلى الآيات التي تُحدِّثك عنهم وجدت قوماً يقرُّون بوجود الخالق ويعترفون بربهم ويعتقدون برسالة رسولهم والتوراة المنزَّلة عليهم، وهم لا ينكرون اليوم الآخر ولا الجنة ولا النار، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا في قوله تعالى:

---

[1] سورة الحجر: الآية (٣٩).

[2] سورة الأنفال: الآية (٤٨).

{وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ}[1].

{وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ}[2].

ففي هاتين الآيتين الكريمتين تجد اليهود يناقضون أنفسهم بأنفسهم، وإن شئت فقل يؤمنون بأفواههم دون أن تؤمن قلوبهم، إنهم يقرُّون باليوم الآخر والجنَّة والنار، لكنك إذا رجعت إلى ما تُشير إليه الآية الكريمة من أعمالهم وتتبَّعت سيرتهم، وجدت شذوذاً عن الحق وانحرافاً إلى الباطل، وتلبُّساً بالمعاصي ثمَّ اعتماداً على الأماني وذلك كله ما يناقض الإيمان ويخالفه، والمؤمن الحق لا يجرؤ على معصية ولا يمكن أن يُباشر إثماً ثم يتمنَّى على الله الأماني.

المؤمن الحق يخاف اليوم الآخر ويحذر النار، وكلَّما ازداد إيمان المرء باليوم الآخر زادت خشيته وعَظُمَ خوفه. فهذا رسول الله ﷺ وهو سيّد المرسلين إطلاقاً، وأوَّل المؤمنين إيماناً، وأعظمهم عند الله مكانةً وشأناً، لكنه إلى جانب ذلك كله كان أشدَّ الناس خوفاً من عدالة الله وأتقاهم لله، وأعظمهم استقامةً على أمر الله.

ألم تسمع قوله تعالى آمراً رسوله الكريم ﷺ بأن يعرِّفنا بما انطوت عليه نفسه ﷺ من خوف لله وخشية إذ يقول تعالى:

{قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}[3].

{قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً ، إِلاَّ بَلاغاً مِنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً}[4].

وأنت ترى من خلال هاتين الآيتين الكريمتين أنَّ الإيمان باليوم الآخر تدلُّك عليه المخافة والخشية، وتُثبِّته الاستقامة، ولا تَعُد لك جرأة على إثم أو معصية، وما سوى ذلك من إيمان إن هو إلا ظنون وأقوال، وإن الظن لا يُغني من الحق شيئاً. وقد نفى الله تعالى الإيمان عن بني إسرائيل الذين ناقضت أعمالهم ادِّعاءهم، فقال تعالى:

---

[1] سورة البقرة: الآية (٨٠).
[2] سورة البقرة: الآية (١١١).
[3] سورة الأنعام: الآية (١٥).
[4] سورة الجن: الآية (٢٢-٢٣).

{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ، قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ، وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ، وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ}[1].

وهكذا فليس الكفر باليوم الآخر إنكار ذلك اليوم ونفيه، بل إنما الكفر باليوم الآخر أن تحتجب النفس بشهواتها الباطلة ودنياها الزائفة وزخارفها الخادعة عن رؤية ذلك اليوم العظيم وشهود مواقفه الرهيبة، فلا ترى حسرات الأنفس المفرطة، ولا تشهد خزي ذوي الجرائم المنحطّة، ولا ترهب النار وآلام حريقها وتُؤْثر الدنيا وشهواتها على الجنَّة ونعيمها، ولا أريد بهذه الرؤية رؤية العين المادية، إذ ما يكون لهذه العين أن ترى حسرة أو تشهد خزياً أو ترهب ناراً، بل إنما أريد الرؤية النفسية، وما الكفر إلا احتجاب النفس عن تلك الرؤية، بسبب ما يقوم بينها وبين ما يمكن أن تراه من حجب وموانع ساترة.

والآن وبعد أن ألمحنا لك شيئاً عن كفر اليهود باليوم الآخر، نريد أن نبيِّن لك كفرهم بالله فنقول:

إنَّ هذا الاعتراف الذي يعترفه اليهود بخالقهم مقروناً إلى ظنونهم السيئة بربِّهم، هو الذي حجب نفوسهم عن الله، وهو الذي أوقعهم بالكفر والبعد عن الله، فهم يعترفون بوجود الخالق لكنهم كانوا يحيكون المؤامرات ضدَّ رسول الله ويوصي بعضهم بعضاً بأن لا يبوحوا بأسرار مؤامراتهم أمام أحد من الناس، ولو أنهم آمنوا حقاً لعلموا أنَّ الله تعالى ناظر رقيب، لا يعزب عن علمه مثقال ذرَّة في الأرض ولا في السماء. وهم يقرُّون بوجود الخالق، لكنَّ نفوسهم احتجبت عن رؤية تلك اليد الإلهية التي تسهر على تسيير أمور الكون وتصريف شؤونه.

{وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ}[2].

---

[1] سورة البقرة: الآية (٩٣-٩٦).

[2] سورة المائدة: الآية (٦٤).

فاليهود الذين يقرُّون بوجود الخالق وقد احتجبت نفوسهم عن رؤية التسيير الإلَهي لهذا الكون، زعماً منهم أنَّ الكون يسير بذاته، وأنَّ الناس والمخلوقات يتنازعون الوجود والبقاء، وأنَّ الأقوى منهم له الغلبة والفوز. إذا أنت دقَّقت في زعمهم هذا وجدته كفراً صريحاً بالأُلوهية، إنَّه كفر بالله وبكلمة "**لا إلَه إلا الله**"، لقد كفر اليهود، بسبب زعمهم هذا رغماً عن كل اعتراف وإقرار، والآن وبناءً على ما سقناه لك من حديث وآيات عن إبليس واليهود وإن شئت فاجمع إليهما المنافقين الذين فصَّلَ لك القرآن الكريم أقوالهم وأحوالهم، نستطيع أن نجمع القول فنقول: ليس الكافر فقط هو الذي لا يعترف بوجود الخالق وينفيه بل إنَّما **الكافر**: هو الذي سَتَرَ عن نفسه رؤية كمال الله وأسمائه الحسنى، بما ظنَّه بربِّه من ظن سيِّء. فالذي يزعم أنَّ الكون يسير بذاته، وأنَّ الله تعالى ترك الناس يتنازعون فيه البقاء، إنما هو كافر بالألوهية والتسيير الإلَهي، وما الإيمان الحق بالله إلا أن تشهد أنَّ الفعل كلَّه بيد الله، وأنَّه لا إلَه إلا الله، فلا يقع واقع إلا بإذنه ولا حول ولا قوة إلا بالله. والذي يزعم أنَّه بسعيه وحده يرزق نفسه والأولاد، وأنَّ الأمطار والأحوال الجوية وخروج النباتات وغير ذلك من الحوادث التي بسببها تتأمَّن حوائج المخلوقات، إنَّما هي موجودات طبيعية تجري من تلقاء نفسها. هذا الرجل كافر بالتربية والإمداد الإلَهي.

وما الإيمان الحق إلاَّ أن تشهد يد الإمداد بالتربية مبسوطة عليك بالعطاء، لا تغفل عنك ولا عن سائر المخلوقات، ولا تنقطع لحظة ليل أو نهار. والذي يزعم أنَّ الله تعالى أعطى فلاناً ومنح فلاناً وحرمه لا لسبب بل ظلماً وحرماناً بغير حق، هذا الرجل إنما هو كافر بعدالة الله ورحمته، كافر بفضله تعالى وإحسانه وإن كان يقرُّ بوجود الله.

والمنافق الذي يباشر المعاصي زاعماً أنَّ الله تعالى سيعفو عنه غداً وسيُدخله الجنة لا بُدَّ وأن يقع في الكفر، وسيحجب الخجل والذنب نفسه عن الإقبال على الله وفي الحديث الشريف: «**المعاصي بريد الكفر**».

**وهكذا فالكفر على أنواع:**

كفر بالألوهية، وكفر بالتربية الإلَهية، وكفر بالعدل والإحسان الإلَهي، إلى غير ذلك من أنواع تجتمع كلها في شيء واحد، هو احتجاب النفس عن الله ووقوع بعض الموانع ستراً بين النفس

وبين الله، تقرُّ بوجوده تعالى وتقف الموانع والحجب ستراً بينها وبين الإقبال عليه، والتنعُّم بنعيم قُربه وتذوُّق فضله وإحسانه، ورؤية رحمته ورأفته وسائر أسمائه.

والسبب في الكفر كله أن يقف الإنسان من الإيمان موقف المعتقد المقرّ، دون أن يتوغَّل تفكيره في البحث والتدقيق، حتى يصل إلى العقل حيث الحقائق تبدو ظاهرة للنفس، فتعقل التربية والإمداد الإلّهي، وتعقل العظمة والإحسان والرحمة والرأفة وتعقل التسيير الإلّهي، لا بل جميع الأسماء الحسنى التي ما أحصاها مُحصٍ فعقلها إلا ودخل الجنَّة.

على أنَّ الذين يقفون من معرفة خالقهم ومربيهم موقف المصَدِّق للآخرين فيما يسمعون منهم دون بحث وتعمُّق وتدقيق، وإن شئت فقل هؤلاء الذين لا يُعملون تفكيرهم يوماً إثر يوم وحيناً بعد حين، حتى يعقلوا التربية وينتقلوا من مرتبة المصدِّق، إلى مرتبة المؤمن المشاهد للحقائق، يظلُّون دوماً على خطرٍ عظيم، فقد ينقلب أحدهم على عقبيه، وقد يترك الصلاة والصيام، وكثيراً ما يتراجع عن سيرته المستقيمة وخطَّته الحميدة ومن بعد حج وزيارة وزكاة أموال وصدقات كثيرة، حتى أنه قد يغدو مُعارضاً للحق، وقد يُشاقق أهل الحق من بعد صحبة طويلة ولزوم مجالسهم المتتالية، ذلك لأنه اكتفى بالتصديق دون التعمُّق والتحقيق، اعتمد على النقل دون أن يعدوه إلى اليقين والعقل، وقد أشار القرآن الكريم إلى جماعة من الذين انقلبوا على أعقابهم من بعد تصديقهم فقال تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ، فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ، فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ}[1].

وما أوقع هؤلاء فيما أوقعهم به من كفر ونفاق إلا عدم سلوكهم طريق الإيمان، واكتفاؤهم بالتصديق والاعتقاد، ولو سلك الإنسان طريق الإيمان حتى وصل منه إلى العقل واليقين، لأضحى في أمن وأمان، ولما تسرَّب إلى قلبه أدنى شك أو ارتياب، قال تعالى:

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}.

[1] سورة التوبة: الآية (٧٥-٧٧).

[2] سورة الحجرات: الآية (١٥).

وهكذا فالمعوَّل عليه كلُّه إنما هو **العقل، والدين هو العقل ومن لا عقل له لا دين له**، وما دمنا نعتمد على ما نسمعه من الآخرين من آبائنا وأُمهاتنا، من المرشدين والهُداة، من العلماء والحكماء، مهما بلغت أقوالهم في الوضوح والبيان، لا يمكن أن تصل بنا إلى علم أو أن تبلغ بنا منازل العقل، لأنَّ العقل والعلم نتيجتان من نتائج شهود النفس بذاتها الحقائق، ورؤيتها إيَّاها بنور الله رؤية عيان، ورؤية النفس الحقائق بذاتها أوضح لديها مما تراه بعينها وصورتها، والشهود النفسي والعقل ألصق بالنفس وأثبت من الرؤية بالعين والسماع بالأذن واللَّمس باليد، لأن النفس بهذه الحواس إنَّما تُدرك ظواهر الأشياء، إنها تدركها بصورة غير مباشرة، إنها تدرك الصورة وتظل في معزل عن الحقيقة، وأما العقل فإنما يكون بسبب إدراكها إيَّاها بالذات ووقوفها منها وجهاً لوجه.

**العقل**: أن تدرك النفس الحقائق بنور الله إدراكاً، العقل: أن تستمسك النفس محتفظة في سويدائها بما رأته في ذاتها، وبما شهدت حقيقته، استمساكاً واحتفاظاً لا يزول ولا ينمحي منها أبد الآباد ودهر الدهور، ولنظرة واحدة من نظرات النفس إلى طرف من عظمة الله تعالى، أعظم لديها بآلاف مؤلَّفة من أقوال تسمعها أو شروح تُشرح لها وتبينها، وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور. وإنك ما دمت تسمع دون أن تعقل فما وصلت إلى الإيمان وما تزال في دور التصديق والاعتقاد.

{قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}(١).

وهكذا فالإيمان المبني على **العقل وشهود الحقائق** لا يمكن أن يزول، ولا أن يُخالطه شك ولا أن يمازجه ارتياب، ومن بلغ منازل التقوى فقد أضحى سميعاً بصيراً، يرى الأشياء بنور الله فيُميِّز خيرها من شرّها، وبذلك لا يمكن أن يقع في معصية أو إثم، وكيف يقع في معصية أو إثم وهو يرى ما فيه من أذى وما انطوى تحته من شرور؟. أم كيف يُقصّر في فعل المعروف وقد تبدَّى له ما اشتمل عليه من خير ورفعة وسمو؟.

(١) سورة الحجرات: الآية (١٤).

وشتَّان ما بين مؤمن مشاهد وكافر محجوب، وما أبعد حال الأعمى عن البصير والأصم عن السميع، قال تعالى:

{مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ}[1].

ولذا أمر الله تعالى رسوله الكريم أن يُعلن هذه الحقيقة لقومه ومن عارضه من المشركين، الذين طمعوا بأذاهم ومناقشاتهم، أن يردُّوا المؤمنين كُفَّاراً، وظنوا أنهم يستطيعون أن يُقنعوا رسول الله ﷺ بالتوقُّف عن دعوته، فلا تزداد ظهوراً وانتشاراً فقال سبحانه مُخاطباً رسوله ﷺ:

﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ، لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ .

**والعبادة:** هي الطاعة في تطبيق الدَّلالة والخضوع للأمر، يُقال: عبدَ فُلانٌ ربَّه أي: خضع لأمره وأطاعه في تطبيق دلالته التي تبلِّغها على لسان رسوله.

قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ}[2].

أي: ما أخرجتهم إلى هذا الوجود إلا لِيُطيعوا أمري ويُطبِّقوا دلالتي التي شرَّعتها لهم، ليصلوا بواسطتها إلى ما أعددته لهم من السعادة والنعيم المقيم. وتفصيلاً لهذا وتعريفاً لك بالغاية التي أخرج الله تعالى الإنسان من أجلها إلى هذا الوجود نقول: جاء في الأحاديث القدسية الشريفة:

«كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أُعرف فخلقت الخلق، وعرفتهم بي، فبي عرفوني»[3].

**والكنز:** هو الشيء الغالي الثمين الذي خفي عن الأنظار والمشاهدة، فإذا ما عثر عليه امرؤ وظهر له، فرحَ وسعدَ لما يراه فيه من الخير والنعيم.

وهكذا فالكمالات الإلٰهية كنزٌ، ما شاهدها مُشاهد إلاَّ واستغرقت نفسه في مشاهدتها استغراقاً يجعلها تغيب عن كل شيء وتفرح بها أكثر من كل شيء، وتستأنس بمعاينتها أعظم من كل شيء، فما المال والبنون ولا الزوجات الحِسان ولا الحدائق والجِنان ولا الملك العظيم والسلطان، بأحبَّ للنفس من المشاهدة لكمال الله والاستغراق في رؤية العظمة والرحمة والحنان والرأفة وغير ذلك من الأسماء، وفي الحديث القدسي الشريف:

---

[1] سورة هود: الآية (٢٤).

[2] سورة الذاريات: الآية (٥٦).

[3] قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ}. وقد وافق على صحة الحديث الشيخ علي ملا القاري مستنداً إلى تأويل ابن عباس رضي الله عنه لقوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ} أي: ليعرفوني. وقد اعتمده الصوفية وابن عربي وبنوا عليه أُصولاً.

**«ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فِتُّك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء»**[1].

وبالحقيقة ما الكون كلّه بما فيه من حسن ومتعة وجمال، إلا ذرَّة من بحر لا بل أثر من آثار صاحب الجمال والكمال. وإذا كانت المخلوقات كلُّها بما فيها من حسن وجمال وكمال، لا يعدل حسنها مثقال ذرة من ذلك الأصل، فماذا حوى شيءٌ واحد، أم ماذا نال مخلوق من ذلك الكنز وذلك الأصل؟.

إنك إذا ذهبت تفكر وتتعمَّق في الأمر، أدركت طرفاً من الفرق بين الأصل والفرع، وعلمت أنَّ الخالق جلَّ جلاله تعالى لن يُقاس أو يُقارن بالمخلوق، وعلمت أنَّ التسبيح الصحيح إنَّما هو سبح في مشاهدة ما يمكن أن يراه المخلوق، من كمال إلّهي وعظمة ليس لها انتهاء، وأنَّ الإنسان إذا وصل إلى ذلك الأصل حطَّ رحاله عنده واستغنى به عن كُلِّ شيء، لأنه أحبّ إليه من كُلِّ شيء، كما أنك تُدرك من معنى الحديث الشريف «**كنت كنزا مخفياً..**»، لأنك ظفرت بشيء من هذا الكنز وسعدت بما حصلت عليه من هذا الكنز.

وتعلم لِمَ تنام أعين الأنبياء ولا تنام قلوبهم في ليل أو نهار، وفي يقظة أو منام، ولا تغفل عن مشاهدة هذا الكنز والتمتُّع والترقي في رؤيته من حال إلى حال، ومن مقام إلى مقام.

إنك تُدرك معنى قوله تعالى:

{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ}[2].

وتعلم أنَّ العبادة إنما هي: تطبيق تلك الدلالة والخضوع لتلك الأوامر التي تنتهي بك إلى مشاهدة هذا الكنز، والوصول إليه والتمتُّع به والاستغراق والتنعُّم في شهوده شهوداً متزايداً متتالياً، لا ينقطع ولا يمكن أن ينقطع عن الواصل إليه والمتمكِّن فيه طرفة عين، قال تعالى:

{رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ}[3].

---

[1] الزبور – إحياء علوم الدين: الجزء الرابع – ص(٤٦٩) بلفظ (من طلبني وجدني ومن طلب غيري لم يجدني، فقال أبو الدرداء: أشهد أني لسمعت رسول الله ﷺ يقول هذا).

[2] سورة الذاريات: الآية (٥٦).

[3] سورة النور: الآية (٣٧).

أما وقد عرفت معنى عبادة الله، وتبيَّن لك أنَّها الخضوع لأمره وتطبيق دلالته التي تنتهي بالمرء إليه تعالى، والتمتُّع بذلك النعيم العالي والمقيم فقد أضحى من اليسير عليك أن تُدرك معنى قوله تعالى آمراً رسوله الكريم، أن يُعلن ما في نفسه لمن عميت بصيرته عن تلك الحقيقة من الكافرين إذ يقول:

﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ، لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ .

نعم إن رسول الله ﷺ وكذلك كلَّ مؤمن سائر على هُداه لا يَعْبُدُ إلا الله، لأنه يعلم أنَّ عبادة الله وحده وطاعته هي التي تنتهي بصاحبها إلى النعيم والسعادة، سعادة الدنيا والآخرة.

وما أراني ذكرت لك ممَّا في عبادة الله تعالى من سعادة إلا طرفاً يسيراً وناحية من النواحي، ولو أنَّك ذهبت تُدقّق وتُحقّق لوجدت أنَّ عبادة الله تعالى، وإن شئت فقل: تطبيق دلالته تضمن لصاحبها إلى جانب ما ذكرناه من سعادة نفسية ونعيم، سعادةً في جميع أحواله الدنيوية وظروفه، إنَّها تضمن له سعادة في ماله وأهله، سعادةً في زوجه وأولاده، سعادة في طعامه وشرابه، سعادة في عمله ومهنته، سعادة في منامه ويقظته، إنَّها تضمن له السعادة كلَّها وذلك بعض ما أشار إليه الحديث القدسي الشريف الذي أورده ﷺ عن حضرة الله:

«**فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتُّك فاتك كل شيء**».

نعم إنَّك بعبادتك الله تعالى تسير على الدروب دروب السعادة، وتفوح عليك من جوانبها روائح زكيّة عطرة، فإذا ما انتهى بك المسير وانقضت مرحلة هذه الحياة، فقد غدوت في حضرة القرب الإلٓهي مقيماً لا تبرح، يلذُّ لك الخطاب ويستهويك شهود الكمال والجمال فلا تبغِ عنه بديلاً، ويغمرك الفضل والإحسان وأنت في كنف الرحيم الرحمن.

قال تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ، فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ}[1].

أما الذين ظلموا أنفسهم ببعدهم عن خالقهم، هؤلاء الكافرون الذين ما عظَّموا ربَّهم وما قدَّروا إحسانه المتواصل، بل أساؤوا الظنَّ به تعالى غير مُشاهدين فضله عليهم وعنايته الدائمة بهم، هؤلاء بسبب عدم التفكير والتقدير، وإن شئت فقل بسبب بعدهم عن الله وعدم مشاهدة

---

[1] سورة القمر: الآية (٥٤-٥٥).

التربية والعظمة واحتجاب أنفسهم عن رؤية ذلك الكمال الإلَهي، لا بُدَّ وأن تتولَّد في أنفسهم جراثيم الشهوات الدنيئة وتنبت في قلوبهم محبة الدنيا الدنيّة، لذا يهرع الشيطان إليهم يُزيِّن لهم الفسق والفجور، ويُحبِّب إليهم الانغماس في الرذائل، ويُلقي بهم في مهاوي الضلال والشقاء، وبما أنَّهم لا إقبال لنفوسهم على الله ولا استنارة لها بنور الله، لذلك سرعان ما يتجاوبون مع الشيطان في دلالته، ويسيرون فيما يأمرهم به وما يدرون أنَّه الهلاك والشقاء، وما عرفوا ما سيتلوه من آلام وحسرات، ولو أنَّهم طبَّقوا دلالة الله تعالى وساروا على هُداه لما ضلُّوا هذه الضلالة ولما انحرفوا هذا الانحراف، بل لأبعدوا ما سيتتبَّع الكفر والإعراض من علل نفسية وأمراض، ولأدركوا ما في عبادة الشيطان من شقاوة وتعاسة وبلاء. ذلك كله إنَّما نفهمه من كلمة:

﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ، لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ .

**ولا أعبد**: أي: لا أطيع ما تطيعونه من أصنام وشيطان ونفس، وغير ذلك ما سوى الله تعالى. إذ أنني بإقبالي على ربي أصبحت ذا بصيرة، أسير على نور من ربي وهدى، فأنا لا أفعل ما تفعلون من الشرِّ، ولا أتبع الهوى، لأنني رأيت ما في ذلك من هلاك وأذى.

وقد جاء التعبير هنا بكلمة (**أعبُدُ**) و (**تعبدون**) بصيغة المضارع بياناً للحال الراهن وتخصيصاً لذلك بوقت المتكلم. وبالآيات التالية بصيغة اسم الفاعل (**عابد وعابدون**) بياناً للاستمرار والدوام. اسم الفاعل تعني ثبوت الصفة غير مقيَّدة بزمن من الأزمان.

وهذه الكلمة تُعرِّفنا بأن رسول الله ﷺ بإقباله على الله واستنارته بنوره أضحى سليم القلب، بصيراً بما في الدنيا من أذى وشر، وما ينبغي للمؤمن المشاهد أن يتطلَّع إلى ما يتطلَّع إليه الكافرون، أو يقع فيما يقعون ولا أن يعبد ما يعبدون. فالمؤمن المقبل بسبب إقباله على الله لا يُواقع الشرَّ ولا يُقارف المعاصي، ما استمرَّ على إقباله. ونداء الكافرين بـ (**يا أيها**) و (**أيُّ**): نكرة وهي في الأصل لا تعني شخصاً معيَّناً، وقد ذُكِرَتْ هنا توصُّلاً بها إلى نداء الاسم المعرَّف بعدها.

**والكافرون**: في تعريفها بأل الجنس لا تُخصِّصُ الكافرين في عصر من العصور، بل تشمل كلَّ من اتَّصف بهذه الصفة، أي كل من كان جاحداً لفضل الله ونعمه، منكراً متناسياً. إذ الكفر:

جحودٌ بالخالق أيضاً، وهو نكران بالنعمة وسترها. وهو والحالة هذه نقيض الشكر: الذي هو رؤية الإحسان وشهود نعمة المنعم.

أمَّا **الكافرون** فببعدهم عن الله وعدم استنارة قلوبهم بنور الله وإن شئت فقل: بعدم رؤيتهم ما في طاعة الله تعالى من السعادة والخيرات، وما في مخالفته من الأذى والشقاء والهلاك، فليس بممكن أن يسلك أحدهم طريق السعادة أو أن يفارق ما هو فيه من شذوذ وانحراف، وقد وضَّح لنا تعالى هذه الحقيقة بما أعربت عنه الآية الكريمة في قوله سبحانه:

﴿ وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ .

أي: وأنتم بإعراضكم عن خالقكم أصبحت نفوسكم فاقدةً ذلك النور الإلَهي الذي يضيء لها طريقها، محرومة من تلك البصيرة التي تريها سبل سعادتها. لذلك مهما نصحتكم، وبيَّنت لكم، لا تنزعون عن الشر ما دمتم متلبِّسين بهذا الإعراض.

وهكذا فللمؤمن باستنارة قلبه بنور ربّه استقامتُه وسعادته وهداه، وللكافر بإعراضه عن الله انحرافه وإصراره على ضلاله وعماه.

ثم بيَّن لنا تعالى أنَّ الاستقامة أو الانحراف وأنَّ السير في طريق السعادة أو الشقاء، أمران منوطان بسنن مطّردة وقوانين ثابتة وأنَّ المعوَّل بذلك كله على الإنسان ولذلك قال تعالى:

﴿ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ ﴾ .

أي: أنني ما دمت مقبلاً بنفسي على الله ومستنيراً بنور الله الذي أرى به طريق الحق فلا يمكن أن أسلك سلوككم أو أفعل ما تفعلونه أنتم أو أتحوَّل عمَّا أنا عليه، ولا أن أفارق ما أنا فيه.

﴿ وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ .

ما دمتم أنتم مستمرِّين على هذا الحال وملازمين ما أنتم فيه من كفر بنعم الله، والجحود لفضله، مصرِّين على ما أنتم عليه من إعراض وعدم إقبال بنفوسكم عليه تعالى فلا يمكن لكم أن تسلكوا طريقي ولا أن تسيروا فيما أنا سائر فيه ولا أن تهتدوا إلى ما اهتديت إليه، بل ولن تطمئن نفوسكم إلى فعل الخير وعمل الصالحات، بل تظلُّون على ما أنتم عليه من مقارفة الأذى والشر.

وهكذا فللإيمان بالله والإقبال عليه نتائجه وآثاره من هُدى واستقامة، وللكفر والإعراض عن الله نتائجه وآثاره من عمى وضلالة. قال تعالى:

{وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}[1].

وأخيراً بيَّن لنا تعالى أنَّ للكافر مَيْلُه ودينه، وللمؤمن مَيْلُه ودينه، وفي النهاية:

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ .

وكلمة (**الدين**)، مأخوذة من دان: بمعنى خضع وانقاد، تقول: دانت الأمم لحكم المسلمين الأوَّلين بمعنى: خضعت لهم عن طوع وانقياد لِما رأت في حكمهم من عدالة ولما وجدت منهم من عطف ورحمة وحسن رعاية. ولكلمة (**الدين**)، معانٍ عدَّة وهي في جملتها لا تخرج عن ذلك المعنى العام الذي أوردناه وأعني به الخضوع والانقياد، فهي تأتي بمعنى الحساب والجزاء، والحساب والجزاء إن كان عادلاً تخضع له النفس وتُدين، ولذا يقال: أدان الحاكم الخصم، أي: حكم عليه بحكم عادل جعله يرى فيه الحق ويخضع إليه.

وتأتي كلمة (**الدين**)، بمعنى الشريعة والمذهب، وقد سُمِّي ديناً لخضوع النفس لأحكامه واستسلامها لأوامره من بعد أن تحقَّق لديها أنَّ الخير في اتباعه والسعادة في تطبيق مبادئه.

وهكذا فللكافر دين، وللمؤمن دين، الكافر تدين نفسه للفسق والفجور والرذيلة لأنه يرى فيها على حسب نظره المعكوس وقلبه المنكوس الخير والفائدة، ولو أنه آمن وأقبل على الله لرأى بنور ربِّه ما في الرذيلة من أذى وضرر وهلكة. والمؤمن تدين نفسه للشرف والنبل والفضيلة لأنه بسبب قربه من خالقه وعلى حسب ما اصطبغت نفسه من صبغة الكمال أضحى لا يميل إلاَّ إلى الشرف والنبل والكمال.

وكل امرىءٍ كافراً كان أو مؤمناً له دينه وميله متناسباً مع بعده أو قربه من خالقه، ولذا أمر الله تعالى رسوله الكريم أن يُعلن هذه الحقيقة للمشركين لا بل للعالمين، بما صرَّحت به الآية الكريمة في قوله تعالى:


 .

[1] سورة الكهف: الآية (٢٩).

أي: لكم ميلكم وخضوعكم، ولي ديني أي ميلي وخضوعي، لكم ما ينتج عن عملكم وستُجزون على ما قدَّمتم من أفعالكم، ولي نتاج عملي وسأكافأ على ما أقدِّم من الخير. أنتم ببعدكم عن الله وكفركم أضحت نفوسكم ميَّالة للباطل والأذى خاضعة له، وأنا بإقبالي على ربي أضحت نفسي ميَّالة للفضيلة والكمال خاضعة للحق مُذعنةً إليه.

**ويكون مجمل ما نفهمه من هذه السورة:**

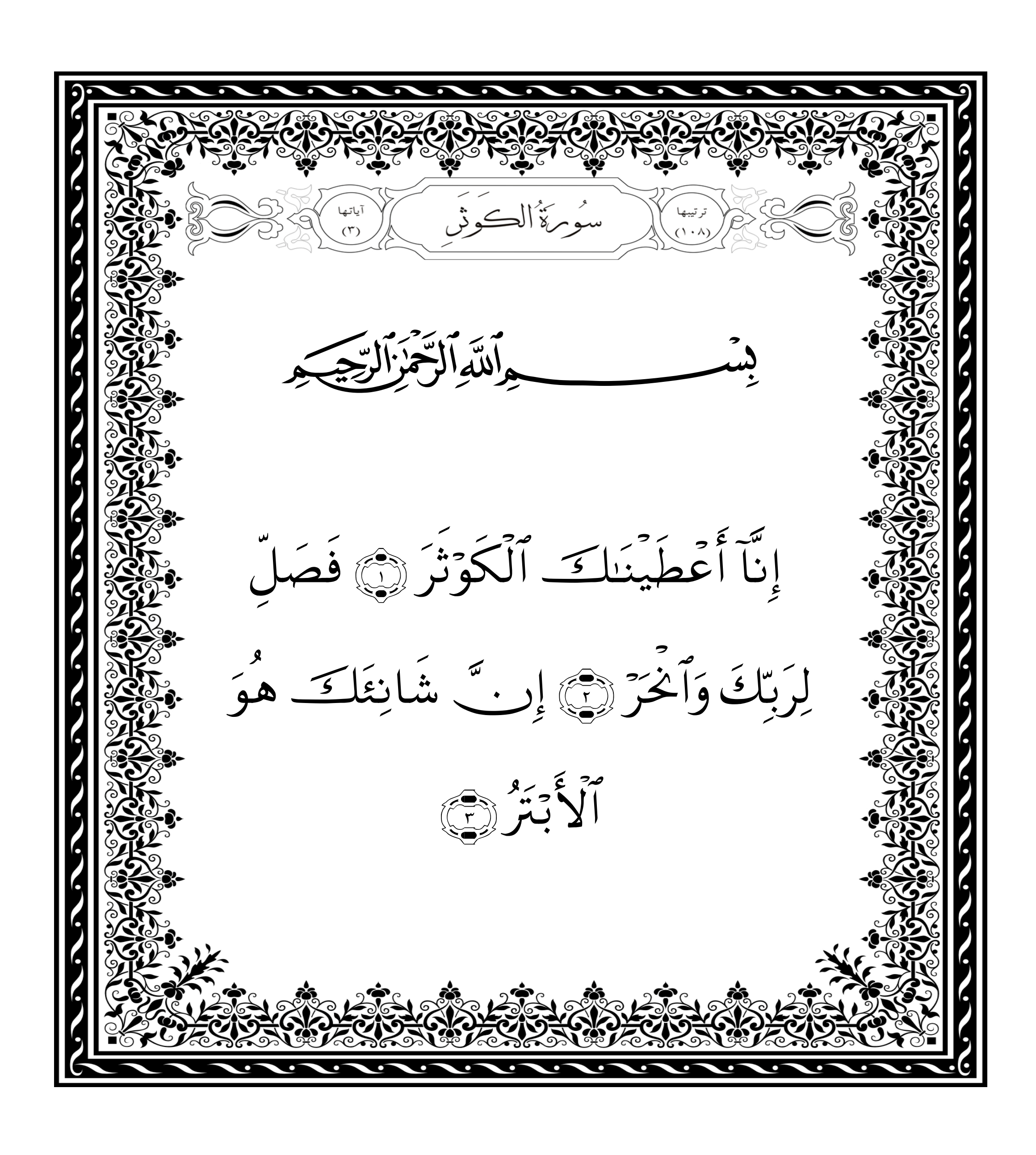
أن الإنسان إذا أقبل على ربه، حُفظ من عمل الشر، ودام محفوظاً من الوقوع فيه ما استمرَّ على إقباله عليه تعالى.

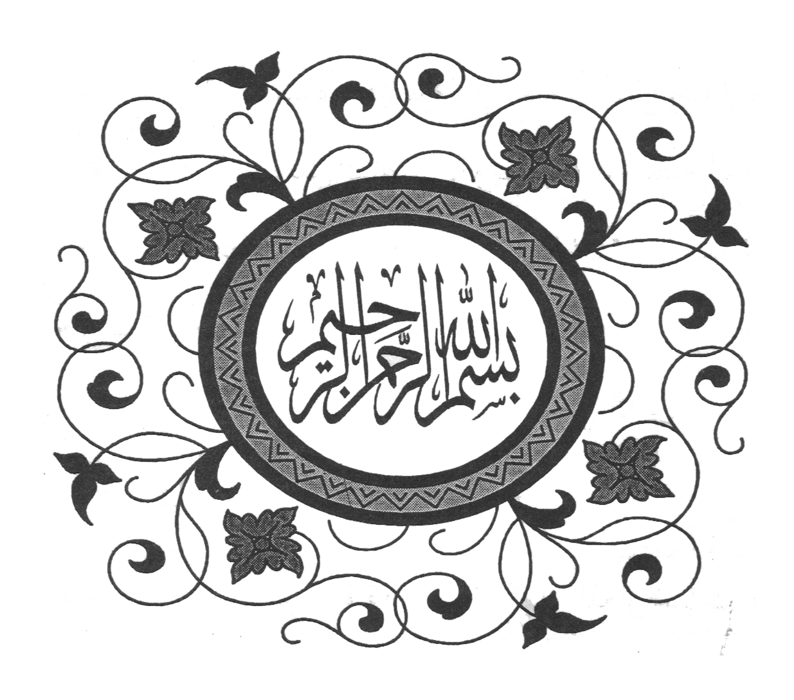
أما إذا هو لم يُقبل على ربه، ولم يقدِّر نِعَمه حق قدرها فلا بدَّ له من أن يقارف المعاصي ويؤذي الناس وهو والحالة هذه لا يهتدي إلى طريق الحق، ولن يفعل الخير ما دام متلبساً بكفره وإعراضه.

وهكذا فما الكفر والإعراض عنه تعالى إلا سبب كل رذيلة وانحطاط ومبعث كل شرٍّ وسبب كل أذى وشقاء، وما الإيمان والإقبال إلاَّ مصدر كل فضيلة وسمو وكمال، وكل خير وإحسان.

والحمد لله الذي أمر رسوله بأن يُجاهد الكفَّار وأن يُغلظ عليهم ليُخرجهم من الظُلمات إلى النور.


سُورَةُ الكَوْثَرِ


ترتيبها (١٠٨)
سُورَةُ الكَوثَرِ
آياتها (٣)
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾




إذا أردت أن تُدرك طرفاً من معنى كلمة (**الكَوْثَر**)، وإن شئت أن تلمَّ بشيء مما تُشير هذه الكلمة إليه، فتصوَّر نفسك أمام نهر عظيم هدّار، من أغزر أنهار الدنيا ماءً وأشدِّها نقاوةً وصفاءً، يتدافع ماؤه في تيار قوي سريع، ثم ينصب في شلال كبير كأنه الثلج، لا يستطيع أن يفارق الرَّائي جماله، ولا أن ينقطع عنه الناظر طرفة عين، فإن أنت تصوَّرت هذا التصوُّر، رأت نفسك طرفاً من معنى كلمة (**الكَوْثَر**)، وعلمت أن **الكوثر**: هو الكثير المتتالي المتزايد تزايداً متصاعداً باستمرار، الغني غنىً كبيراً بالخيرات.

وهكذا فكلمة (**الكَوْثَر**)، لا تقتصر في معناها على الكثير فحسب بل إنما تضم إلى ذلك أوصافاً عدةً، فهي تجمع إلى جانب الكثرة التواصل والتوالي والتزايد المتتالي والخير العظيم المستمر بلا انقطاع، ويكون ما نفهمه من كلمة (**الكَوْثَر**)، إذا أردنا أن نصف بها نهراً من الأنهار، إنه النهر الغزير الماء المتواصل الجريان الغني ماؤه بالمواد النافعة للنبات، المتزايد تزايداً لا يمكن أن يلم به فكر أو يحيط به إدراك.

وإذا كنا بما أوردناه من تمثيل وبيان قد أوضحنا لك طرفاً من معنى كلمة (**الكَوْثَر**)، فاعلم أنَّ الكوثر هنا لا تعني ماءً غزيراً ولا نهراً جارياً كبيراً، بل إنما تشير إلى ذلك الفضل الإلّهي العظيم الذي منَّ به الله تعالى على سيدنا محمد ﷺ، فكان للعالمين نذيراً وداعياً إلى الله وسراجاً منيراً،

إنها تشير إلى ذلك الفضل الإلٓهي العظيم الذي تفضَّل به الله تعالى على رسوله الكريم، إذ جعل هداية البشرية على يديه واصطفاه رسولاً إلى الناس كافَّة ورحمةً للعالمين.

والحقيقة أنَّ هداية امرئٍ ضال والأخذ بيد إنسان تائه إلى سبيل الإيمان، خير لصاحبها من الدنيا بما فيها من متعة ونعيم وسلطان عظيم ومال وفير، وفي الحديث الشريف بما ورد عنه ﷺ:

**«لأن يهديَ اللهُ على يديك رجلاً خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس وغربتْ»**[1].

فكم على ظهر البسيطة من حدائق وجنات، وكم فيها من كنوز وزروع وأموال وخيرات، وكم في الدنيا من مناصب عالية وسلطان ولذائذ وشهوات، فإن أنت حظيت بنعيم الدنيا كله وملكت مال الدنيا بأسرها، ومكَّن الله لك في الأرض تتبوَّأ منها حيث تشاء وتتمتَّع بالعز والسلطان، ذلك كله لا يعدل ما تناله غداً عند الله من الأجر والثواب، وما يكرمك به ربُّك من النعيم الأبدي المقيم، بسبب هدايتك امرءاً واحداً ودلالتك إياه على الله، وأخذك بيده إلى طريق السعادة والإيمان، وكيف يعدل النعيم الدنيوي الفاني نعيماً أبدياً مقيماً؟. وكيف تعدل متعة ساعة من نهار، جنات عدنٍ تجري من تحتها الأنهار؟.

أم كيف يعدل شهود جمال المخلوق، التمتُّع بمرأى وشهود جمال خالق الكون ومفيض الجمال، والقرب من جنابه العالي والفوز بإكرامه ورضاه!. فإن كنت ممن أكرمه الله تعالى بهداية إنسان ضال، والأخذ بيد امرىءٍ زَلَّتْ به القدم فكاد يهوي في مهاوي الرذيلة والهلاك، فقرَّ بذلك عيناً وطِبْ نفساً وسبِّح بحمد ربك على ما تكرَّم وتفضَّل به عليك وأعطاك، فقد أعطاك، خيراً كثيراً وأغناك غنىً كبيراً، وإن كنت في دنياك مريضاً عليلاً لا تملك من مالها حظاً وفيراً فتجارتك هذه عند الله لن تبور، وما عند الله خيرٌ وأبقى وسيجزيك الله بأحسن مما عملت ويزيدك من فضله إنَّه غفورٌ شكور.

وإذا كان الله تعالى يهب الإنسان غداً ما يهبه من عطاء على هدايته امرءاً واحداً، فماذا يكون نصيب رسول الله ﷺ من الثواب وقد هدى الله تعالى به الأجيال تلو الأجيال أخرجهم من الظلمات إلى النور وكسَّبهم جنات وجنات، ومئات لا بل آلافاً من أصحابه الغرِّ الميامين، ومن ثم ملايين الملايين على مرِّ الدهور وكرِّ العصور ممن لهم في كل يوم وحين صلة نفسية به وصلاة

---

[1] الجامع الصغير /٧٢١٩/ طب عن أبي رافع /ح/.

وسلام عليه، وإقبال بمعيته على الله ورفقة لتلك النفس الطاهرة الزكية ودخول بصحبتها في حضرة الله، وارتشاف من ذلك المعين وفوز بالقرب من الرحمن الرحيم، أبَعْدَ هذا نقف من سورة الكوثر وقفة لا نُدرك ما تُشير إليه في مطلعها من معنى، ولا نفقه طرفاً من خطابه تعالى لهذا الرسول العظيم بما أشارت إليه الآية الكريمة:

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ .

هذا ولقائل أن يقول لماذا ورد الضمير المتّصل والمنفصل في هذه الآية الكريمة في صيغة الجمع ولم يرد في صيغة المفرد فقال تعالى (**إنَّا**) ولم يقل (**إنّي**)، وقال (**أعطيناك**) ولم يقل (**أعطيتك**)؟.

**وفي الجواب عن هذا نقول:**

قد يكون المتكلِّم أو المخاطب مفرداً ويرد الضمير في صيغة الجمع، إشارة إلى ذلك المقام العالي الذي يقوم به المتكلِّم أو المخاطب، ودلالة إلى ذلك الشأن الكبير الذي له، أو العمل العظيم الذي يجري على يديه، فإذا أردت أن تُخاطب أميراً أو سلطاناً عظيماً قلت: هل تسمحون أو ترغبون؟. وكثيراً ما يكون جوابه لك في صيغة الجمع إذ يقول: نعم نسمح أو نرغب أو نحن نتطلَّب منك كذا وكذا.

فالمتكلِّم فرد واحد في ذاته لكن الأعباء والأعمال الجسام التي يضطلع بها بمفرده، إنَّما يعجز عنها جمع من الناس، فإذا خاطبك بصيغة الجمع تمثَّلت في جوابه أعماله العديدة، والنواحي الجمَّة التي يقوم خطابه عليها، من كبير علم وحكمة وعظيم قدرة وقوة، وواسع رأي واطِّلاع وحسن تدبُّر الأمور وتصرُّفها، إلى غير ذلك من النواحي التي إن اجتمعت في هذا الشخص، جعلتك تستغني به وهو فرد عن كثير ممَّن لو اجتمعوا جميعاً، لا يضاهونه فيما يقوم به من أعمال. وإذا كان هذا ينطبق على شخص من الأشخاص ومخلوق من المخلوقات، وكنَّا نسكن إلى خطابه إيَّانا في صيغة الجمع، ونتمثَّل فيه تلك النواحي التي أشارت إليها صيغة الكلام، فمن الحري بنا أن ندرك من قوله تعالى:

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ .

وقد وردت في صيغة الجمع لأنها تشمل معاني عدّة من رحمة وحنان وتفضُّل وعطف وإحسان وعلم وقدرة وحكمة وعدالة وتربية شاملة عمَّت جميع المخلوقات في كل حين وآن. وألوهية

كل ما في الكون خاضع لتصرُّفها سائر بأمرها إلى غير ذلك من الأسماء الحسنى التي تنطوي تحت هذا الخطاب.

كلمة ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ تقول:

لقد اقتضى علمي وخبرتي وعدالتي وحكمتي ورأفتي ورحمتي وحسن اصطفائي وانتقائي وغير ذلك من أسمائي: أن أجعلك رسولي إلى عبادي، وهادياً ونذيراً إلى خلقي، لأنك وحدك الحقيق بأن تقوم في هذا المقام، وأن تكون مُبلِّغاً لرسالاتي. والحق أنَّ الله تعالى ما اختار لتبليغ رسالاته وما اصطفى الهُداة إلى عباده، إلاَّ بناءً على ما رآه فيهم من أهلية واستحقاق، وعلى حسب ما هيَّأوا أنفسهم إليه من تنقية لها من الشوائب، وسموا بها إلى منازل الكمال. وإذا كنَّا نحن بني الإنسان لا نُكلّف امرءاً بعمل من الأعمال، ولا نوكله في مهمة من المهمات، إلاَّ إذا وجدنا منه الأهلية التَّامة والصفات التي يتطلَّبها منه عمله ومُهمَّته، فهل يُتصوَّر وهل يُعقل أن يرسل الله تعالى لخلقه ويجعل وسيطاً بينه وبين عباده، إلا من كان بذلك المقام خليقاً بتبليغ تلك الرسالة السامية جديراً وحقيقاً.

وهكذا فما أعطى الله رسوله الكريم ما أعطاه، وما جعله رسول العالمين والبشرية جمعاء، إلا بما كان لديه ﷺ من أهلية، وبما اشتملت عليه نفسه من جدارة واستعداد لذاك المقام الذي دونه كل مقام.

وكذلك الأمر بالنسبة لكل رسولٍ وهادٍ وكل من اصطفاه الله تعالى لمقام الإرشاد، لا يتَّخذ الله تعالى ولياً من خلقه، إلا أكرم البشر خُلُقاً وأطهرهم قلباً وأزكاهم نفساً، وأشدهم على هداية الخلق حرصاً وأكثرهم بهم رأفةً ورحمة، وأجرأهم على الباطل صولة، وأفقههم بأوامر الله تعالى وأوسعهم بما انطوت عليه من معان وحكمة علماً ومعرفة، وهكذا الأمثل فالأمثل وفضل الله تعالى واسع يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

ألم تسمع إلى قوله تعالى مبيِّناً أن اختياره الأئمَّة والهُداة من بني إسرائيل لم يكن جزافاً ومجرَّد تكليف، إذ قال تعالى:

{وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ}[1].

---

[1] سورة السجدة: الآية (٢٤).

إذ بيّن الله تعالى بكلمة {لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} سبب ذلك الاختيار وكذلك الأمر في كثير من فواتح السور، إنَّما يُخاطب الله تعالى رسوله الكريم بكلمات وأحرف يعرّفنا بها بأهلية رسوله، واستعداده العالي الذي جعله جديراً بأن يُنزَّل الكتاب عليه، فتارةً يُخاطب الله رسوله بقوله تعالى:

{طه ، مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى}[(١)].

أي: يا طاهر النفس من كل شائبة ومن كل الذنوب، يا هادياً الخلق إلى سبيل السعادة، إلى علاَّم الغيوب ما أنزلنا عليك القرآن لتظل بسبب معاندتهم وعدم اهتدائهم في ألم دائم وحزن متواصل.

وتارةً يُخاطب الله تعالى رسوله بقوله:

{الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ}[(٢)].

إذ يشير تعالى بهذه الأحرف التي تضمَّنتها كلمة (**الر**) إلى تلك الصفات التي تحلَّت بها نفس رسوله ﷺ فجعلته أهلاً لأن تُنَزَّل عليه آيات الكتاب. والحرف الأول من كلمة (**الر**) وهو الألف يقول: **يا أحمد الخلق**، حمدتني حمداً فقت فيه حمد عبادي بما عرفت من كمالي، وبما رأيت من رحمتي ورأفتي وعظيم إحساني، والحرف الثاني من كلمة (**الر**) وهو (**اللام**) يقول: **يا لطيفاً بعبادي**، فكل امرئٍ رافقت نفسه نفسك الزكية الطاهرة عَرَجَتْ بصحبتها وبغير شعور منها إليَّ وفازت بقربي، فإذا النفسان معاً في حضرتي، والحرف الأخير (**ر**) يقول: **يا رحيماً بعبادي**، كل ذلك ممَّا فيك من صفات جعلك أهلاً لأن يُنزَّل عليك كتابي، وأن تكون رسولاً إلى عبادي وهادياً إلى خلقي.

وهكذا جميع أوائل السور وفواتحها بما فيها من رموز، إنما تشير إلى أهليته ﷺ وعظيم صفاته، وربُّك حكيم عليم ما اختار الرسول محمداً ﷺ وسائر المرسلين إلاَّ بما هم عليه من أهلية، وبما هيأوا له أنفسهم حيناً بعد حين، وما أمر "**غار حراء**" لديك بمجهول، وما التفكير العلمي الذي قام به سيدنا إبراهيم ﷺ في البحث عن المربي منك ببعيد.

---

(١) سورة طه: الآية (١-٢).

(٢) سورة يوسف: الآية (١).

أما وقد عرفنا طرفاً مما تشير إليه كلمة ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾، فلننتقل إلى الآية الثانية من هذه السورة الكريمة وهو قوله تعالى:

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾.

فنقول:

ترى أي صلاة تعني هذه الآية الكريمة؟. صلاة الظهر أم العصر أم المغرب أم العشاء، أم صلاة عيد الأضحى؟. وهل تراها تعني تلك الصلاة الصورية التي عرَّفها أناس بأنها أقوال وأفعال مبتدأة بالتكبير ومختتمة بالتسليم، أم أنها تُشير إلى معنى آخر غفل عنه فريقٌ من الناس؟.

إننا إذا رجعنا إلى سبب الأمر بالصلاة وتتبَّعنا المراد منها، وإذا نحن نظرنا إلى سياق الكلام وارتباط الآيات بعضها ببعض، وجدنا هذه الآية الكريمة تشير إلى معنى آخر غير الذي يفهمه فريق من عامة الناس، إنها تُشير إلى حقيقة الصلاة، إلى ذلك الإقبال والوجهة النفسية إلى الخالق عزَّ وجل، إنها تُشير إلى تلك الصلة المعنوية صلة العبد بربه التي يجب أن يسعى إليها كل امرئٍ، والتي من دونها لا يمكن للإنسان أن يعرج في معارج الرقي النفسي، ولا أن يبلغ منازل الكمال، بل من دونها لن يستنير قلبه فيرى الحقائق التي يتلوها عليه الرسول الكريم بأمر ربّه.

والحق أنَّ النفس البشرية، نفس أي إنسان كان إنَّما جاءت إلى هذه الدنيا خالية من كل شيء، وهي أشبه بالصفحة البيضاء، لكن اختلاف هذه الأنفس في الأخلاق وتباينها في الكمال، إنَّما نشأ على حسب إقبال الأنفس على خالقها وعدمه. وما امتازت أنفس على أنفس، ولا سبق فريقٌ منها الآخرين في الكمال إلاَّ بحسب إقباله، فلكلٍّ مقامه ودرجته، ولكلٍّ سبقه ومنزلته، وأسبق الأنفس إلى الله تعالى وأكثرها صلة به وإقبالاً عليه، أحظاها بالكمال وأكبرها حظاً منه واصطباغاً به، قال تعالى:

{صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ}[1].

لذا تجد الآية الكريمة التي نحن بصددها تطلب إلى رسول الله ﷺ، أن يصلِّي لربِّه لا في وقت معيَّن دون غيره من الأوقات، بل تطلب إليه أن يجعل صلته دوماً بالله ليزداد من الكمال

[1] سورة البقرة: الآية (١٣٨).

ارتشافاً، وفي العلم بالله ارتقاءاً وسمواً، ومثْل رسول الله حقيقٌ بهذه الصلاة لما عرفه من كمال ربّه، ولما تحقَّق لديه من رأفته تعالى ورحمته وعظيم عطفه وحنانه، وما أمر الله تعالى رسوله بهذا إلاَّ ليزداد بتلك الصلاة إقبالاً وتقدُّماً، وليرتشف من ذلك الكمال الإلّهي ارتشافاً كبيراً متواصلاً، وفضل الله واسع يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم. أما وقد تبيَّن لنا أنَّ المراد من الأمر بالصلاة هنا حقيقة الصلاة وجوهرها، فلنبيِّن لك آثارها وما يفيده المصلِّي منها، وإن كانت آثار الصلاة في النفس أكبر من أن تُحصى وأعظم من أن يُعبّر عنها لسان، أو يصفها قلم ويُعرِّف بها بيان. إنها تقلب هذه النفس البشرية من طور إلى طور ومن حال إلى حال، إنها تُبدِّل من أخلاق الإنسان فإذا هو بشر لا كغيره من البشر، وإذا أردت أن تُمثِّل ذلك بمثال فأقول: إذا أنت سمعت بأنَّ الكيمياء تقلب الحجر ياقوتاً صافياً والفحم ماساً برَّاقاً لامعاً والنحاس ذهباً خالصاً، فاعلم أن ذلك رمز وإشارة، وأنَّ الصلاة الحقيقية وحدها هي التي تقلب القلب المتحَجِّر الذي هو في كثافته وعدم نفوذ النور منه كالحجر فتجعله كالياقوت صفاءً ونقاوةً، وهي التي تجعل القلب الأسود المظلم كالماس لمعاناً وإشراقاً، وهي التي تُحوِّل صفات الإنسان عامَّة فتبدِّلها بصفات عالية، ما الجواهر ولا الذهب بأثمن لدى مالكها وأغلى عليه ممَّا تحلَّى به قلبه من أخلاق، وما اكتسب من صفات وما فاز به من كمال.

**الصلاة** هي الكيمياء الصحيحة التي تُحوِّل أخلاق الإنسان من حالٍ إلى حال، وكفى بالرسل الكرام وصحابتهم على ذلك شاهداً ودليلاً. وإن أنت صلِّيت حقيقة الصلاة كان لك دليل من نفسك، وهو لديك أقوى من كل دليل، فإذا أنت ذلك الإنسان الشجاع المغوار الجريء الذي لا يهاب من بعد أن كنت تخاف من أبسط الأشياء، وإذا أنت ذلك الإنسان الكريم السخي كالغيث إذا واجهته الريح من بعد أن كنت بخيلاً قتوراً، وإذا أنت ذلك البحر الزاخر بالعلم والمعرفة ما يعسر عليك فهم شيء من بعد أن كنت لا تفقه من كلام الله إلا النزر اليسير، وهكذا عدِّد من الصفات وأضدادها والأخلاق ومعاليها تجد المصلي **"حقيقة الصلاة"** فاز بالمعالي من كل خُلُق كريم فوزاً متناسباً مع صلاته، وكلما ازداد إتقاناً لصلاته وعناية بها ازداد في الكمال تقدُّماً، وليس لفضل الله حد ولا انتهاء.

والآن وبعد أن قدَّمت لك طرفاً من أثر الصلاة في نفس الإنسان، أجد من اليسير علينا أن ندرك سبب اقتران كلمة (**فَصَلِّ لِرَبِّكَ**) بما بعدها وهي كلمة (**وَانْحَرْ**) وأن نفهم طرفاً من المعنى المنطوي تحت كلمة (**وَانْحَرْ**)، فنقول:

ليس النحر الذي تشير إليه كلمة (**وَانْحَرْ**) الواردة في هذه الآية قاصداً نحر شاة أو جزور، فإن هذا المعنى لا يجعل أي ارتباط بين كلمة (**فَصَلِّ لِرَبِّكَ**) وهي تعني حقيقة الصلاة، وبين كلمة (**وَانْحَرْ**)، إذا نحن فهمناها بمعنى ذبح الأضاحي والأغنام، إنما النحر الذي تُشير إليه كلمة (**وَانْحَرْ**) هو الصدّ و الردّ، صدّ الباطل وردّ أهله بالخسران والخيبة. فالباطل له صولته وجولته، ولأهل الباطل معارضات للحقّ وأهله، وبالصلاة الحقيقية التي يُصلّيها الإنسان، وبالصلاة الحقيقية التي كان يصلِّيها رسول الله ﷺ كان يكتسب من الله تعالى علماً ومعرفة وحججاً دامغة، يقذف بها على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، وإذا بالباطل قد زهق والحق قد نحره وأصاب مقاتله، يقال: نحر فلان عدوه، أي: ضربه في نحره وردَّه خائباً، ويقال: نحر الحق الباطل، أي: أخمده وأزهق صولته، والله تعالى بهذه الآية الكريمة إنما يأمر نبيه ورسوله أن يصلِّي لربه وينحر، إذ بهذه الصلة تتفجر في قلبه ﷺ ينابيع العلم والمعرفة والحلم والحكمة وغير ذلك من الصفات الكاملة، وهنالك تصبح لديه ﷺ الإمكانيات لنحر الباطل وإزهاقه، ورد أهله بالخيبة.

ولولا هذا العلم بالله ولولا الحكمة التي كان رسول الله ﷺ يستمدُّها من الله، وإن شئت فقل: لولا الصلاة الحقيقية التي كان رسول الله ﷺ يصلِّيها، ويصلِّيها معه أصحابه الكرام لما كان لهم هذا النصر المؤزّر وهذه الحجج الدامغات، قال تعالى:

{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً}[1].

ننتقل الآن إلى آخر آية من هذه السورة الكريمة وهي قوله تعالى:

---

[1] سورة الفتح: الآية (٢٩).

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾.

فنقول:

بعد أن بيَّن لنا تعالى في الآية الأولى من هذه السورة ما تفضَّل به على رسوله من الفضل العالي، والخير الكبير وبعد أن طلب تعالى إلى رسوله ﷺ في الآية الثانية أن يديم صلته بخالقه، ليستمد من ذلك المصدر السامي العلم والمعرفة والصفات الرفيعة، التي تمكِّنه من النهوض بأعباء تلك الرسالة نهوضاً متناسباً مع ما استكنَّ في نفسه ﷺ، من حرص على هداية الخلق وتعريفهم بربهم والأخذ بأيديهم إليه، أراد الله تعالى أن يعرِّفنا في هذه الآية:

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ أنَّ حب رسول الله ﷺ وتقديره وطاعته، علامة ودليل على الإيمان بالله وأنَّ الذي لا تقدير لديه ولا حب ولا طاعة لرسول الله إنما هو بعيد عن الله منقطع عنه، وهو بعد لم يصل إلى الإيمان الحق الذي يجب أن يسعى إليه كل إنسان.

وتبياناً لألفاظ هذه الآية الكريمة من زاوية اللغة وتفصيلاً للمعنى نقول: (**الشانئ**) مأخوذة من شَنَأَ، بمعنى أبغض، والشانئ: هو المبغض عن عداوة، ومنه الشنآن قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}[1].

أي لا يحملنَّكم بغضكم لهم ومعاداتهم إيَّاكم على حرمانهم من حقوقهم وعدم العدل فيهم، اعدلوا في معاملتهم فإن العدل مع المسيء ومعاملته بالإحسان، يجعلك تزداد قرباً من الله أكثر ممَّا لو أحسنت إلى صديق لك أو قريب من أقاربك لأن عملك عندها يكون خالصاً لله.

**والأبتر**: مأخوذة من بَتَرَ، بمعنى قطع الشيء وفصله عن أصله، يُقال: بتر الطبيب يد المريض، أي: قطعها وفصلها فهي بتراء، ومنه البتَّار: وهو وصف للسيف إن كان ماضياً قاطعاً. **والأبتر** هنا: هو المنقطع عن الله الذي لا صلة له بخالقه ولا إقبال له عليه، فإذا كنت لا تشعر بقرارة نفسك بهذا الحب الكمين لرسول الله ﷺ، وإذا كان قلبك لا يهيج عندما تسمع بأخلاقه ﷺ العالية ولا تحنّ لذكراه، وإذا كنت لا تجد نفسك حينما يُذكر ﷺ تسري إليه سريان الكهرباء

[1] سورة المائدة: الآية (٨).

في الأسلاك، والماء في العود الأخضر من النبات، فإذا هي وقد اجتمعت بنفسه الزكية الطاهرة طاوية الزمان والمكان على بعد القرون وشاسع المسافات، وإذا كنت لا تفهم من قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً}[1].

إلا أن تردِّد بلسانك ألفاظاً دون أن تشعر بما تكنّه هذه الألفاظ وراءها من معنى وما ترمز إليه من حقيقة وما تتطلَّبه منك من صلة نفسية وإقبال، بمعية تلك النفس السامية على الله أقول: إذا أنت لم تعرف هذا كله ولم تشعر به ولو شعوراً قليلاً، ولم تُطِع رسول الله ﷺ في ما جاءك به عن الله، فاعلم أنك بعد لم تصل إلى الإيمان الحق بالله فإذا آمنت بالله حقّاً بدأت تشعر وجعل هذا الشعور بمحبَّة رسول الله وتلك الصلة النفسية تتولَّد وتزداد فإذا أنت في حال من الذوق النفسي، وفي حال من النعيم المعنوي: لا يُباع بملء الدنيا ذهباً ولا يبادل بما فيها من مناصب وجاه وسلطان.

نعم إن هذا الشعور هو نبراس الإيمان والبرهان الساطع عليه، وهو الذي يُطمئن قلبك ويستحثُّك على المضي في هذا الطريق على التقدُّم والازدياد.

ولعلك تقول: ما هذه العلاقة بين الإيمان وبين محبة رسول الله ﷺ، وما السبب في أن محبته ﷺ دليل على الإيمان الحق، وأنَّ بغضه وعدم تقديره كفر ونفاق؟.

**وفي الجواب عن هذا نقول:**

من قوانين النفس وسننها الثابتة أنها إذا أحبَّت شخصاً أحبَّت كلَّ من يلوذ به ويحبّه وجميع من لهم تعلُّق فيه، ذلك لأن المحبّين تتواصل أشعة نفوسهم وتتداخل كما تتداخل وتتواصل أشعة المصابيح المضيئة التي ليس بينها حاجز أو حجاب، فإذا أحبَّ المرء ربَّه حقاً أحبَّ رسول الله ﷺ لحُبِّ رسول الله ﷺ العالي لربِّه وصلة نفسه دوماً بالله، كما أنه يحب كل محب لرسول الله، من أعظم صحابي جليل حتى أي مؤمن له ولو تعلُّق قليل برسول الله، والمؤمنون في تبادل قلوبهم المحبة كلٌّ متَّصل الأجزاء، وقلوبهم عامة مجتمعة على حُب الله وحب رسوله:

{لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[2].

---

[1] سورة الأحزاب: الآية (٥٦).

[2] سورة الأنفال: الآية (٦٣).

ومن هنا يتبين لنا أنَّ الشانئ الذي لا يحب رسول الله ولا يعرف شأنه العالي عند الله، إن هو إلا رجل بعيد عن الله لم يصل إلى الإيمان ولا إلى محبّة الله، ولو أنَّه آمن بالله لأحب رسوله بل لأحب آل بيته الطيبين الطاهرين وأصحابه الكرام المرشدين إلى سُنَّته السَّنيّة، بل لأحب كل مؤمن بلا استثناء.

وتسألني وقد عرفت أن محبة رسول الله ﷺ هي عنوان محبة الله، وهي الدليل القاطع على الإيمان[1]، كيف الوصول إليها؟.

ومن أين الطريق؟. فأقول وبه تعالى أستعين ومنه أرجو وأسأل التوفيق:

هذا الكون بما فيه من شمس وقمر وكواكب وأجرام، بما فيه من أمطار وثلوج وسحب ورياح، بما فيه من أرض وسماء وحيوان ونبات، حتى الكرة الأرضية في جريانها ودورانها، والفصول الأربعة في تبدُّلها وتعاقبها، والليل والنهار في اختلافهما وتلاحقهما، وإن شئت فقل:

هذا العالم الخضم الزاخر بالمخلوقات وبجميع ما فيه من كائنات، حتى جسمك وما تألَّف منه من أجهزة وأعضاء، وما يجري فيه من مبادلات وتحليل وتركيب وقيام غدده بما يتطلَّبه من إفرازات، وتهيئة ما يلزمه من مواد مختلفات، ذلك كله ممَّا تعلمه وما لا تعلمه إنما يجري ضمن قانون ثابت ووفق نظام.

وإذا كان الخالق العظيم قد جعل لهذا الكون بجميع ما فيه من مخلوقات قانوناً ونظاماً يسير عليه ولا يتعدَّاه، وإذا كان الخالق العظيم قد سخَّر هذا الكون وذلَّلَهُ لهذا الإنسان، فهل يُتصوَّر ويُعقل أن لا يكون لهذا الإنسان وهو أكرم المخلوقات وأفضلها قانون ونظام؟. هل نظَّم الخالق العظيم الكون كله وترك الإنسان يسير في هذه الحياة على غير هدى ونظام؟. هل نظَّم الخالق العظيم الكون كلَّه وأهمل هذا الإنسان، وتركه يتخبَّط في الظلمات فلا يعرف خيره من شره ولا يدري كيف يسير في مجاهل هذه الحياة؟. الفكر المستقيم والمنطق الصحيح والوعي السليم، كل هذا يحكم مقرّاً بوجود هذا النظام المرسوم لهذا الإنسان، فأين يا تُرى ذلك القانون والنظام؟.

---

[1] انظر كتاب زيارة الرسول ﷺ وأثر محبته في رقي النفس المؤمنة للعلّامة الجليل **محمد أمين شيخو** قدّس سره.

تعالَ معي ننظر فيما جاء به الرسل الكرام عامَّة عن الله، تعال نستمع إلى أوَّل كلمة أوحى بها الله تعالى إلى الرسول ﷺ ليُبلِّغها للناس إذ قال تعالى:

{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}[1].

تعال لِنُدقِّق في هذه الكلمة التي بلَّغها الرسول محمد ﷺ للعرب كافَّة ولجميع العالمين، تعال ننظر في تلك الدلالة التي دلَّ الرسول عليها أصحابه الكرام، تعال ننظر إلى ما كان يتلوه عليهم في مكة وفي الأيام الأولى من بعثته ﷺ من قرآن مُنزَّل من عند الله، تعال ننظر نظرات الظامئ إلى الحقيقة لا المتمسِّك بما وجد عليه آباءه الأولين دون وعي أو تفكير، تعال نخرج من هذه الجهالات التي ركَّبتها فئات من ذوي الأهواء والضلالات، تعال نرجع إلى الحق والحق أحق أن يُتَّبع، ولنقتد بالرسل الكرام ولنتبع النهج القويم الذي ساروا عليه كافَّة تجد النظام المنشود والقانون المرسوم في القرآن، والذي طبَّقه رسول الله بذاته ودعا إلى تطبيقه صحابته الكرام، فكان لهم ما كان من شأن حتى ملأ ذكرهم الخافقين، وفازوا بما فازوا به من السعادة والخيرات.

**أقول**: ذلك القانون والنظام هو أن تتعرَّف إلى أصلك وتنظر في بدايتك أيها الإنسان، فمن عرف نفسه عرف ربَّه، ومن عرف ربه هداه طريق السعادة وحفظه من الشقاوة والضلال، ومن يهدِ الله فهو المهتدي، ومن يُضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه. فكِّر أيُّها الإنسان في أصلك، وتفكيرك في أصلك وبدايتك أوَّل مواد هذا القانون والنظام الذي شرَّعه لكَ الله، فكِّر وكيف لا تُفكِّر وقد تفضَّل عليك ربُّك بتلك الجوهرة الثمينة التي تساعدك على التفكير وتصل بك إلى معرفة خالقك ومربيّك، فكِّر وكيف لا تُفكِّر وقد جعل لك في هذا الكون من الآيات العظيمة والنظام البديع مراتع واسعة ومجالات كبرى يرتع ويجول فيها التفكير، فكِّر وكيف لا تُفكِّر والكون أمامك كتاب مفتوح تستطيع أن تقرأ فيه ولو لم يعلِّمك مُعلِّم، ولو لم يتولَّ أمرك أحد، فالله تعالى لك إن صدقت خير مُعلِّم ودليل، فكِّر في أصلك يوم كنت نطفة في ظهر أبيك، فكِّر في هذه النطفة كيف تكوَّنت وممَّ تركَّبت، فكِّر في هذه النطفة أين وضعت واستقرت؟. فكِّر في نفسك وقد أصبحت في ظلمات الرحم وفي ذلك المستودع الأمين، فكِّر

---

[1] سورة العلق: الآية (١-٥).

في تلك الأطوار التي مررت بها فمن نطفة إلى علقة ومن علقة إلى مضغة ومن مضغة إلى عظام، عظام مركَّبات بنظام واتساق، رُكِّبت عليها العضلات وخُلِقَ منها تجويف الدماغ وللعين والآذان والفم منه مكان، وللقلب والرئتين قفصهما وللأحشاء منها حوامل ومراكز للعروق والأوتار.

فكِّر ولا أريد أن أُفصِّل لك في هذا كل التفصيل، بل أدع لك المجال لتُشاهد وترى كيف أنَّ النطفة الأمشاج تحوَّلت إلى إنسان سوي ومخلوق كريم، فكِّر وقدِّر عظمة تلك اليد التي أوجدتك وصوَّرتك وسوَّت لك هذه الأعضاء وجعلت الدماغ والقلب والأجهزة الرئيسية، وما تتألف منه من أَعْظُمٍ وأجزاء في مكان أمين وحرزٍ حريز، فكر في تلك اليد التي كانت تسوق لك الغذاء وأنت في طريقك إلى الدنيا وحيداً فريداً لا حول لك ولا قوة، وما تملك لنفسك رزقاً وما يملك لك أحد رزقاً، لكن تلك اليد التي سهرت على خلْقك هي التي كانت ترزقك، فتسوق لك الغذاء وتمدَّ كل عضو من أعضائك بما يلزمه من مواد.

فكِّر في تلك اليد التي استطاعت خلال بضعة أشهر نقلك من نطفة إلى إنسان، فما تأخَّر خلقها وما هي بمسبوقة عن إنجاز الخلق وتركيب الإنسان في مدَّته المعيَّنة، فما أن أزف موعد الولادة والخروج إلى الدنيا حتى قَلَبَتْكَ وأنت في بطن أمك رأساً على عقب، فجعلت رأسك إلى أسفل وأرجلك إلى أعلى ويسَّرت لك السبيل إلى الولادة، قال تعالى:

{قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ، مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ، مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ، ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ، ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ، ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ، كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ}[1].

فكِّر وقد نزلت إلى هذا العالم الجديد في أرض جديدة، فأحاطك بعطف أُمك ولطفها وبثَّ في قلبها محبَّتك وأودعه حنانها وهيأ لك طعامك في ثدييها فإذا هو سائغ شرابه، لذيذ طعمه، مغذٍّ حاوٍ كلَّ ما يحتاجه جسمك من مواد وجميع ما يتطلَّبه. فكِّر في تلك الوجبات من الغذاء التي كانت تُهيِّئها لك تلك اليد الرحيمة بك، فتزيد لك في معاييرها الغذائية لحظة بعد لحظة ووجبة بعد وجبة زيادةً متناسبة مع نُموّك وتقدُّمك في السن، حتى إذا ما احتاج جسمك مزيداً من التغذية وأصبحت معدتك قادرة على هضم الأطعمة، أنبت لك الأسنان اللبنية سنّاً بعد سن حسبما يقتضيه النماء وتتطلبه الحاجة.

---

[1] سورة عبس: الآية (١٧-٢٣).

ولسنٍّ سبعٍ خلت من سني الحياة، ومن أجل جسم سيُهيَّأ لأن يضطلع بأمور هامة وأعمال عظيمة وفكْر يدبِّر أموراً جليلة بدَّل لك تلك الأسنان اللبنية بأسنان دائمة تستطيع أن تهيئ لهذا الجسم ما يتطلَّبه من غذاء، فكِّر في تلك اليد التي تُربِّيك الآن فترسل بأشعة الشمس الحارة على البحار تُبخِّر مياهها، وتمرُّ الرياح فتسوق السحب وتُثيرها من مكامنها ثم تُؤلِّف بينها وتجعلها رُكاماً فترى الودق يخرج من خلاله حتى إذا ما حييت الأرض من بعد موتها وارتوت من بعد عطشها كشفت الغيوم وأعادت إلى السماء صفاءها وللشمس إشراقها فإذا الزرع في نماء وإذا الأرض تجود بالخيرات، قال تعالى:

{أَفَرَءيْتُم مَا تَحْرُثُونَ ، ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ، لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ، إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ، بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ، أَفَرَءيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ، ءَأَنْتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ، لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلا تَشْكُرُونَ}[1].

فكِّر في الأغذية وأنواعها، والأزهار وأشكالها وروائحها، والفواكه وألوانها وطعومها، فكِّر في الفصول الأربعة وتقلُّبها، فكِّر في النوم وقد جعله الله تعالى لك سباتاً وفي النهار معاشاً، فكِّر في الهواء يقدِّم لك ما في التنفس والاستنشاق وما يساعد على الاحتراق، فكِّر في الشمس وهي تمدُّك بالحرارة والضياء، فكِّر في البحار، في الأنهار، في السهول والجبال، في الحيوان والنبات، في الملابس والثياب في الصوف و القطن والكتَّان، فكِّر في هذه اليد التي تؤمِّن لك جميع ما تحتاج، وتسهر على تربيتك فإذا هي تغدق عليك من خيراتها وتغمرك بفضلها وتواصل عليك إمدادها في كل لحظة وآن دون أدنى انقطاع.

فكِّر على هذا النمط وبهذه التربية فبمثل هذا التفكير بدأ سيدنا إبراهيم أولى خطواته سائراً في طريق الإيمان، وبمثل هذا التفكير بدأ سائر الرسل الكرام من لدن سيدنا آدم حتى سيدنا محمد ﷺ، فكِّر فإن أنت فكَّرت اهتديت وعرفت أنَّ لك مربِّياً عظيماً ساهراً عليك لا يغفل عنك طرفة عين، أمدَّك جنيناً ثم مولوداً وطفلاً صغيراً، ثم رجلاً وإنساناً كاملاً ما يزال إمداده عليك دائماً، وخيره إليك جارياً متواصلاً، حتى إذا ما استقرَّ في نفسك وعقلته فتحققت فيه، فهنالك سينفتح أمامك أفق جديد ونمط آخر من التفكير.

---

[1] سورة الواقعة: الآية (٦٣-٧٠).

سترى أن جسمك سوف لا يبقى قوياً جلِداً وأنك سوف لا تعيش في الحياة مخلداً، فهذا قريبك قد ودَّع الحياة ومات، وهذا جارك قد فارق زوجه وبنيه أطفالاً وقضى نحبه، ولم يتمتَّع بالحياة الدنيا سوى أعوام معدودات، وذاك صديقك لم يفرح بمتجره ولا ببيته الذي شاده وبناه، بل قطع هازم اللذات كل أمل له في الحياة ووافاه الأجل ولم يُنظره لحظات. وذا مات مريضاً وذا عليلاً وهذا فجأة دون أدنى استعداد، وتنظر إلى هذا وذاك، حتى أنك لتمر بذهنك على الملوك والأمراء والقوَّاد العظماء والأغنياء والفقراء، حتى الرسل الكرام فما تجد الموت أبقى أحداً، وهنالك تعلم أنَّ الموت مصيرك المحتوم رغم كل المحاولات، كما هو مصير من كان قبلك فلا نجاة منه ولا خلاص، وهنا تنقطع آمالك من هذه الحياة الدنيا، وتعلم أنها دار الرحلة والفناء.

ويبعث التفكير في الموت الخشية في نفسك والرهبة ويولِّد الصدق في معرفة المربي، وتهبُّ تبحث صادقاً عنه وتتساءل من هو هذا المربي الذي خلقني من نطفة، ولم أكن من قبل شيئاً مذكوراً، ثم جعلني طفلاً فرجلاً كبيراً؟. وتنظر في الكون من جديد نظرة أخرى أوسع من سابقتها، فتجد أن هذا المربي هو المسيِّر الذي يسيِّر الشمس والقمر، ويدير الكون كله بما فيه من أجل تربيتك وتأمين ما يلزمك، فلا يد لأحد معه ولا تصرُّف لغيره، وهو الله وحده لا إلٓه إلا هو. وهنا تنتقل من الإيمان بالمربي إلى خطوة جديدة أخرى، وهي الإيمان بأن هذا المربي هو الإلٓه المسيِّر، فترى الأجرام السماوية جارية في مسابحها وأفلاكها، وتشهد الشمس تُرسل بأشعتها وحرارتها، والغيوم وقد هبَّت ثائرة من مكامنها، والرياح وهي تجري عاصفة في اتجاهاتها، والبحار الزاخرة متدافعة مياهها متلاطمة بأمواجها، والأنهار منطلقة من منابعها سائرة إلى مصبَّاتها منحدرة شلالاتها، حتى الكرة الأرضية السابحة في فضائها الجارية في فلكها الدائرة حول نفسها بما فيها من المخلوقات التي على ظهرها، ترى ذلك كله سائراً بأمره تعالى وقدرته.

وتتعمَّق في النظر وتزداد تعمُّقاً فترى أنه لا يخطو مخلوق خطوة ولا يرفع يداً ولا يتحرك حركة، إلا من بعد إذنه تعالى وإرادته، وتنتقل في التفكير مرتقياً متسامياً حتى تصل إلى درجة تشهد معها، أن الكون كله وحدة متّصلة الأجزاء مترابطة الذرَّات يعمل كله في اتساق وانسجام، وتلك الإرادة الإلٓهية هي المشرفة والقائمة عليه، وذلك المربي هو الإلٓه المسيِّر لهذا الكون كله، فلا مسيِّر غيره ولا إلٓه سواه.

إنَّك تعلم أن ربك هو الله وهنالك تشهد أن لا إلَه إلا الله، بلسانك من بعد أن شهدتها نفسك في الكون كله، ومن بعد مشاهدتها في صميمك، تقولها بلسانك وقد عقلتها عقلاً لا عن سماع وتقليد، وتؤمن بها كما آمن السلف الصالح والصحابة الكرام، لا إيماناً كإيمان العجائز مبنياً على خُرافات وأوهام، وإذا أنت والحالة هذه قد آمنت بتلك الكلمة صدقاً، وقلت لا إلَه إلا الله حقاً وذلك بعض ما نفهمه من قوله تعالى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ}[1].

وقوله ﷺ: «**من قال لا إله إلاَّ الله مخلصاً دخل الجنة، قيل: وما إخلاصها؟. قال: أن تَحْجُزَهُ عن محارِمِ الله**»[2].

وكيف لا تحجزه عن محارم الله وقد أضحى في حال يرى الله تعالى معه مشاهداً رقيباً كيفما سار وأنَّى اتَّجه؟.

والآن وبعد أن بلَّغتك هذه المرحلة، مرحلة الإيمان بلا إلَه إلا الله من بعد أن وصلت بك بمرحلة الإيمان بالمربي، سأسرع في المسير وقد أضحيت ممَّن يستطيع السير معي بسرعة دون إبطاء، أريد أن أُبيِّن لك آثار الإيمان بكلمة (**لا إلَه إلا الله**)، وأن أنقلك إلى محبة رسول الله ﷺ فأقول: إذا أنت وصلت إلى الإيمان بلا إلَه إلا الله، وأصبحت ممن يرى أن سير الكون كله بيد الله، وانغمرت نفسك بهذه المشاهدة فصرت ترى أنه لا رياح تهبُّ، ولا غيوم تتلبَّد وتتجمَّع، ولا أمطار تهطل، ولا برق يلمع ويومض ولا رعد يدوي ويزأر، ولا بحر يموج بعضه في بعض فيعلو ويهبط، ولا نهر يتدافع ماؤه في تدفُّق متواصل، ولا بركان يثور في غضب، ولا سيل يجري في عنفوان وشدة، ولا زلزال يهزُّ الأرض هزّاً فيلقي الذُّعر في قلوب غافلة لاهية، ولا أرض تدور في سبيل توليد ليل ونهار وفصول أربعة، ولا نجوم تجري لامعة في أفلاك مُنظَّمة، وإن شئت فقل:

إذا أنت أصبحت ممَّن يُشاهد أن الكون بجميع ما فيه من مخلوقات، وحدة تُصرِّفه يد عزيز حكيم وإرادة عليم خبير، حتى أن يدك لا تتحرك بحركة وعينك لا تطرف بنظرة، وأذنك لا تستمع إلى صوت أو جلبة، وقلبك لا يخفق نابضاً بين انقباض وانبساط، وأن معدتك لا تفرز عصاراتها على ما فيها من أطعمة، وكبدك لا يقوم بتخزين مواد وإفراز مواد وفق معايير منظَّمة، ورئتك لا تتَّسع وتنقبض في شهيق وزفير، ودمك لا يجري في شرايين وأوردة، والكريات الحمر لا

---

[1] سورة محمد: الآية (١٩).

[2] رواه الطبراني في الأوسط الكبير.

تنقل ما تنقل في غدوٍّ ورواح، والكريات البيض لا تقف مع الجراثيم في صراع وعراك، والجراثيم لا تُهاجم الجسم في عنفوان وشدّة، أقول:

إذا أنت وصلت إلى هذا عن طريق العقل والمشاهدة النفسية، لا عن طريق السماع من ذوي الاختصاص والنَّقل عن المجلَّدات والكتب، وصرت ترى أن الأمر كله بيد الله، وأن الناس جميعهم خاصَّتهم وعامَّتهم، قريبهم وبعيدهم، قويّهم وضعيفهم، لا بل الخلائق كلَّها لا يستطيع أحد منها أن يجلب لك خيراً أو يدفع عنك شراً أو يمدَّ لك يده بسوء أو أذى، أو يغيِّر من شأنك تغييراً، إلا من بعد إذن الله: تدخل في حصن الاستقامة ولا تستطيع أن تخرج عن حدود الله، وبما أن النفس لا تستطيع أن تظل هادئة بلا عمل، وبما أنها هجرت المنكر وهاجرت إلى الله لذلك تراها تنطلق جاهدة في فعل المعروف والإحسان، وتشتغل في مساعدة كل ذي حاجة تقرُّباً بفعلها إلى الله.

هنا وفي هذه المرحلة مرحلة الاستقامة على أمر الله، والتقرُّب بفعل المعروف زلفى إلى الله، تتولَّد في النفس الثقة بإحسانها والثقة برضاء الله عنها، وهنالك وبمثل هذه الثقة تقبل النفس على خالقها وتستقيم إليه وجهتها وتنعقد صلتها وتصلح صلاتها، فترى أنها في حال القرب لا البعد، والوداد والصفاء لا البعد والجفاء، والحياة الطيبة والروح والريحان، وعندئذٍ وبهذه الصلة والوجهة وبتلك الصلوات الطيبات تحصل النفس على ثمرتين ما كانت لتجنيهما لولا صلتها بخالقها، وما كانت لتظفر بهما لولا إقبالها على الله.

**أما الثمرة الأولى**: فهي أنها بوجهتها إلى خالقها تتساقط منها الذنوب، وأعني بالذنوب ما عَلِقَ بالنفس من شهوات دنيئة وما تمكَّن فيها من أدران. فبهذه الصلة بالله، تنحتُّ هذه الشهوات الدنيئة مُتساقطة، وتنغسل النفس من أدرانها، فتخرج من صلاتها وقد اكتسبت طهارة ونقاوة، وخلصت من شهواتٍ كانت تُنغِّصها وأدران كانت تُلوّثها، فلا بخل ولا جبن ولا حرص على الدنيا ولا شح، ولا فظاظة ولا غلاظة، ولا قساوة قلب ولا حب إيذاء، ولا ذل ولا خنوع، ولا ميل إلى بغي ولا عدوان، ولا مطمع بما في الدنيا من جاه وسلطان، حتى ولا أي صفة رديئة تُنقص من قيمة الإنسان وتُحط من شأنه بين الناس وعند الله.

ذلك كله تمحوه الصلة بالله والإقبال عليه تعالى، وفي حديث شريف ورد عنه ﷺ مبيِّناً فيه أثر الصلاة في نفس الإنسان إذ يقول ﷺ:

**«أرأيتم لو أنَّ نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كلُّ يوم خمس مرات ما تقولون؟. ذلك يبقي من درنه شيئاً؟. قالوا: لا يبقي من درنه شيئاً، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا»**[1].

تلك هي أولى ثمرات الإقبال على الله تعالى ونتائج الصلاة الصحيحة.

**أما الثمرة الثانية:** فإليكها وكم أنت مُغتبط إن نلتها، إنك وفي حالة صلة نفسك بخالقك لتشعر بالحياة تسري في أعماقها كما يشعر المرء بدفء الشمس المنعش في أيام البرد الشديد القارس، وتشعر بالحياة تسري في نفسك كما يشعر المرء بنسيم الهواء الرطب العليل إذا جلس تحت شجرة يتفيَّأ ظلالها في أيام الصيف الشديدة القيظ، وتشعر بالحياة تسري في نفسك كما يشعر الظامئ الهيمان بجرعة الماء البارد يسري ريُّها في عروقه فيطفئ ظمأه ويُنعش جسمه وروحه، وتشعر وتشعر وليس من شعور لدى المؤمن بأجمل من ذلك الشعور الذي يجده في ساعات إقباله على خالقه ومربِّيه، وفيما أنت منغمس بهذا الحال من الشعور السامي الرفيع، تنطبع على صفحات نفسك معانٍ عالية من الكمال وتلك هي الثمرة الثانية التي تجنيها النفس من تلك الصلاة الصحيحة وذلك الإقبال على الله. ومن آثار هذا الكمال الذي اصطبغت به النفس في ساعات الإقبال على الله، ومن مظاهره في نفس هذا المؤمن السائر في ذلك المضمار: الرحمة والحنان، والكرم والجود والسَّخاء والمروءة ومَدُّ يَدِ المعونة للمحتاج، وصِدْقُ الحديث والصراحة في الأقوال، واللطف والرقة ودماثة الأخلاق والحلم والأناة والحياء، والشجاعة والوقوف في وجه الباطل وقفة الأبطال، والعدل والإنصاف وعزّة النفس والإباء، وهكذا عدِّدْ ما شئت من صفات الكمال ومظاهره تجد النفس قد نالت في حال إقبالها على الله تعالى شطراً منه واصطبغت به، قال تعالى:

{صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ}[2].

---

[1] أخرجه البخاري ومسلم.

[2] سورة البقرة: الآية (١٣٨).

والآن وقد بلغت النفس هذه المرحلة وأضحت في تلك المنزلة، وأصبحت ذات كمال وخُلقٍ عالٍ، تجدها تُحب كل ذي كمال وخُلق عالٍ، إنها تحب كل ذي كمال بسبب ما فيها من كمال، إذ لا يُقدِّر الفضل إلا أهل الفضل ولا يعرف الكمال إلا أهل الكمال، فإذا رأت أهل الكرم والجود قدَّرت سبقهم إياها في الكرم والجود، وإن شاهدت أهل الرحمة والحنان قدَّرت تفوُّقهم عليها في الرحمة والحنان، وكذلك الأمر بالنسبة لسائر الصفات والأخلاق، فهي تُقدِّر كل متفوِّق عليها وسبقه إياها، فإن وجدت مؤمناً كاملاً أحبَّتْه، وإن اجتمعت بمرشد صادق عشقته وصاحبته، وبما أن رسول الله ﷺ هو سيِّد أهل الكمال، وأسبق العالمين قاطبةً في هذا المضمار، وحيث إنه ﷺ بقربه العالي من خالقه اكتسب من تلك الحضرة الإلَهية أوفر حظ من الكمال، حتى إنه لم يدانه في ذلك المقام ملك ولا إنسان، لذلك تجد هذا المؤمن يُقدِّر رسول الله ﷺ تقديراً عظيماً يملأ قلبه وجوارحه، فلا يرى مخلوقاً أعظم في نظره ولا يجد إنساناً أسمى مكانة من رسول الله ﷺ، فإذا ما سمع بذكره حنَّ إليه قلبه، وإذا ما ذكر اسمه وذُكرت شمائله وأعماله سَرَتْ إليه نفسه قاطعة شاسع المسافات متخطِّية وبأقل من لمح البصر القرون والأجيال، فإذا هي في صحبة مع تلك النفس العالية، وإذا هي متمسكة بتلك العروة الوثقى استمساكاً لا انقطاع له ولا انفصام.

هنا وبهذا السريان النفسي وبذلك الارتباط المعنوي والصحبة لتلك النفس، وأعني بها نفس رسول الله الزكية الطاهرة، تعرج نفسك إن كنت ممَّن وصل إلى هذا المقام بلطف ومن دون شعور مصاحبةً نفس رسول الله ﷺ المقبلة دوماً على الله، فإذا النفسان معاً في حضرة الله، وهنا يُضيء لك ما سمَّاه الله تعالى بالسراج المنير وهو نور رسول الله ﷺ عن طرف من كمالات الله تعالى فتُشاهد ما تُشاهد ما أنت أهل لمشاهدته من رحمة إلَهية وحنان وعطف ولطف ورأفة وإحسان وعدل وقدرة وعلم وحكمة، وواسع فضل وتربية وإمداد برزق لكل ذي روح وحياة، وتسيير شامل إلى غير ذلك من الأسماء الإلَهية التي ما رأى طرفاً منها راءٍ إلا وهام بها عشقاً وشُغف بها حُبّاً.

وهنا وبمثل هذا العشق لذلك الكمال الإلَهي والحب المنبعث عن رؤية تلك الأسماء الحسنى تحصل النفس على صلة عالية بخالقها، صلة ولَّدها الحب المنبعث عن رؤية الأسماء الإلَهية

والكمال، وهنالك وبهذه الصلة تكتسب النفس نوراً من الله تعالى ترى به الخير خيراً فتحبّه وتميل إليه، والشر شراً فتأنف منه وتزهد فيه، ولعمري تلك هي التقوى التي حثَّ الله تعالى عليها وندب إليها عباده المؤمنين إذ قال تعالى:

{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}[1].

{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[2].

{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}[3].

{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً}[4].

نعم تلك هي التقوى على حقيقتها، إنها اتِّقاء الشرور بنور الله تعالى، إنها اتِّقاء المهالك ورؤية ما في الدنيا من مفاسد بذلك النور الإلّهي، الذي ما كنت تستطيع أن تصل إليه لولا ارتباط نفسك بنفس رسول الله ﷺ.

ومن هنا وعلى ضوء ما ذكرناه من آيات، وما قدَّمناه من بيان، يتوضَّح لنا ما كنَّا بدأنا به من تأويل لهذه الآية الأخيرة الواردة في السورة الكريمة سورة الكوثر، وهي قوله تعالى:

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ .

**فالأبتر**: البعيد عن الله، الأبتر المنقطعة نفسه عن الإقبال على الله، الأبتر الذي لم يصل إلى الإيمان الحق ولم تحصل له في يوم من الأيام صلة حقيقية بالله، لذلك تراه لا يحب رسول الله ولا يقدِّره، تراه شانئاً مُبغضاً لا يعرف شأن رسول الله العالي، ولا يشعر بتلك الصلة النفسية التي يجب أن تكون بينه وبين رسول الله ﷺ.

وهكذا فالإيمان برسول الله نتيجة من نتائج الإيمان بالله، وحب رسول الله ﷺ مقترن دوماً بالإيمان الصحيح مترافق مع الصلة الحقيقية بالله، وفي الحديث الشريف الذي ورد عنه ﷺ إذ

---

[1] سورة التوبة: الآية (١١٩).
[2] سورة الحديد: الآية (٢٨).
[3] سورة الأنفال: الآية (٢٩).
[4] سورة الأحزاب: الآية (٧٠-٧١).

يقول: «**ألاَ لاَ إيمان لمن لا محبة له، ألاَ لا إيمان لمن لا محبة له، ألاَ لاَ إيمان لمن لا محبة له**».

والحمد لله الذي كان فضله عليك يا محمد عظيماً

فَإِنَّ فَضلَ رَسُولِ اللهِ ليس لَهُ حَدٌّ فيُعرِب عَنْهُ نَاطقٌ بِفَمِ